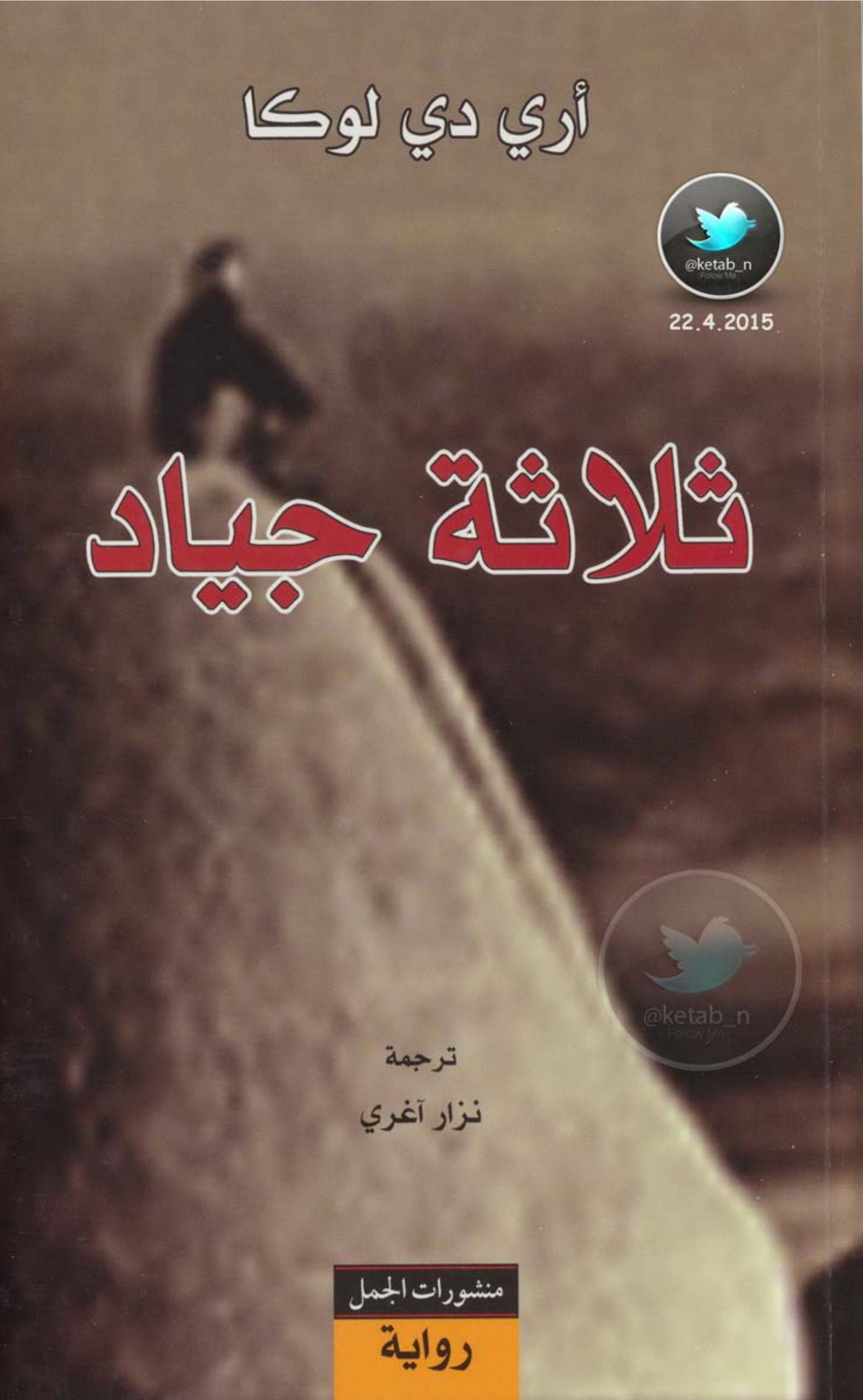

أري دي لوكا

@ketab_n
Follow Me
22.4.2015

ثلاثة جياد

@ketab_n
Follow Me

ترجمة

نزار آغري

منشورات الجمل

رواية

أري دي لوكا

ثلاثة جياد

ترجمة

نزار آغري

منشورات الجمل

@ketab_n
Follow Me
Twitter: @ketab_n

أري دي لوكا: ثلاثة جياد

Twitter: @ketab_n

أري دي لوكا: ثلاثة جياد، ترجمة: نزار آغري

الطبعة الأولى ٢٠١٥

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٥

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Erri De Luca: Tre cavalli

©Erri De Luca, 1999

© *Al-Kamel Verlag 2015*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

مقدمة

تشبه الأرجنتين مثلثاً مستقيم الزوايا تؤلف جبال الأنديز فيه الضلع الأكبر والنهر الشمالي الضلع الأصغر فيما تتشكل القاعدة من المحيط الأطلنطي في الشرق.

تمتد الأرجنتين على طول ثلاثة آلاف وسبعمائة كيلومتر وتقع بين درجتي ٢٢ و٤٥ من خطوط العرض في القطب الجنوبي. وهي تشكل، مع التشيلي، القاعدة النهائية الأخيرة لأميركا وتقع على بعد عشر درجات فقط من غراهان، ركن القارة القطبية الجنوبية.

استقبلت الأرجنتين حتى نهاية عام ١٩٣٩ ما يقارب سبعة ملايين مهاجر نصفهم تقريباً من الطليان.

من عام ١٩٧٦ وحتى عام ١٩٨٢ خضعت الأرجنتين لحكم عسكري دكتاتوري أنهكت جيلاً **بأكمله** واختفى ما يقارب أربعين ألف شخص، أكثرهم من الشباب، من دون مقابر تدل عليهم.

سقطت الدكتاتورية في أعقاب الاجتياح الفاشل لجزر

Twitter: @ketab_n

الفوكلاند ـ المالفيناس ـ التي تبلغ نصف مساحة صقلية، وتقع على بعد ثلاثمائة كيلومتر من الساحل.

حصل هذا في ربيع عام ١٩٨٢.

هذا المدى الشاسع من المساحة والحوادث له علاقة بما يحدث لشخصيات هذه الرواية.

* * *

Twitter: @ketab_n

أنا أقرأ الكتب المستعملة.

أسندها إلى سلة الخبز وأقلب الصفحات بأحد الأصابع. تبقى الصفحة ثابتة لا تتحرك فأمضي أقرأ وأنا أمضغ الطعام. الكتب الجديدة وقحة ولا تكف صفحاتها عن الحركة. إنها تقاوم الثبات ويتطلب الأمر التحكم بها بغية إخضاعها. أما الكتب المستعملة فإن عظامها هشة فتطوى الصفحات بسهولة من دون أن تحاول النهوض ثانية.

أذهب إلى المطعم وقت الغداء. أجلس إلى الطاولة نفسها كل يوم. أطلب النبيذ والحساء وأنهمك في القراءة. روايات عن البحر، مغامرات عن الجبل. لا آخذ معي أبداً قصصاً عن المدينة لأنني أعيشها من حولي على الدوام.

أرفع عينيّ لحظة حين يحجب ظل أشعة الشمس التي تنعكس على زجاج الباب فأراهما يدخلان، هي تجر الهواء وراءها وهو في هيئة الرماد.

أعود إلى كتاب البحر. ثمة عاصفة، بقوة ثمانية. البحار الشاب يتناول الطعام بشهية **فيما** الآخرون يتقيأون، ثم يخرج

Twitter: @ketab_n

إلى دكة السفينة ليستمتع برؤية البحر، وحيداً وسعيداً بالعاصفة.

أرفع نظري عن الكتاب كي أضيف قليلاً من الثوم الطازج إلى الطعام ثم أتجرع رشفة صغيرة من النبيذ الأحمر ذي الطعم اللاسع.

أقلب الصفحات اللينة، وأنا أمضغ ببطء، ثم أرفع نظري عن بياض الكتاب وغطاء الطاولة وألاحق الخط الذي يشكله صف من بلاط الجدار يلف الغرفة كلها ثم يختفي خلف عينين سوداوين لامرأة، رسمتا فوق الخط مثل «ميمين» مفصولين عن الخط السفلي. العينان تحدقان إليّ.

أرفع الكأس إلى مستوى الخط وأدعه هكذا برهة قبل أن أشرب. التناسق بين الخط والكأس يزرع ملامح ابتسامة على وجهي. هندسة الأشياء من حولي تخلق مواجهات ولقاءات.

تبتسم المرأة في مواجهتي بينما الرجل أدار ظهره لي. يحاول أن يدير جذعه مبتدأ بالمرفق فيمر به النادل في تلك اللحظة وهو قادم إليّ حاملاً الصحن. قبل أن ينهي الرجل نصف التفاتته أفلح في إرسال تحية إلى المرأة كما لو كنا نعرف بعضنا بعضاً. ترد المرأة بالمثل فيما يركز الرجل نظره علي. وفي الأثناء أشرب، أضع رأسي في الصحن من جديد، أبلع وأقرأ.

يخلو المطعم من العمال. أبقى هناك لوقت أطول، فليس

Twitter: @ketab_n

لدي ما يدفعني إلى الخروج في تلك اللحظة. اليوم خمر وغداً أمر. تنهض المرأة وتتوجه إلى طاولتي، أنيقة، رشيقة.

أركز نظري على أنفها مباشرة حيث يخرج الهواء من منخريها مع كل كلمة تتلفظ بها. لقد غيرت رقم الهاتف، اتصل بي على هذا الرقم. وتترك لي على الطاولة ورقة صغيرة فيها اسم ورقم. أضع يدي على الورقة. إنها نظيفة إلى حد ما. ليست عندي رغبة في أن أغسل يدي في فرصة منتصف النهار. أنظر إليها وهي تقف قبالتي. أنهض وأرد لها التحية فأقول: يسرني دوماً أن أراك. تضع يدها في يدي. سلم على الأهل. شكراً، سأفعل. كان الرجل وصل إلى الباب ووقف هناك. تستدير وتمضي فأعود للجلوس.

ما الذي أفكر به الآن؟

نعم، نعم، شكراً، سأفعل ذلك. جواب ميت. على من سأسلم؟ ليس لي أحد.

ماذا تريد امرأة بهية من بستاني في الخمسين من عمره يجلس في ركن خفي من المطعم؟ لم يسبق لنا أن التقينا. هي في مقتبل العمر وأنا قضيت عشرين سنة في أميركا الجنوبية.

أنا هنا لأني أعمل في حديقة أحد القصور على قمة المرتفع وأنزل إلى هنا وقت الغداء لكي أستريح وأختلط بالناس، وهي تظهر لأول مرة.

Twitter: @ketab_n

فجأة أصحو من تأملاتي. صاحب المطعم يأتي بزجاجة كي نشربها معاً.

ـ أنت «جنتلمان»، أقول له. لديك نبيذ ممتاز وفي وسع عامل مثلي أن يتيقن من أنه لن يعاني من وجع في بطنه إذا ما رجع إلى العمل.

ـ أنا أيضاً كنت عاملاً مثلك.

ـ وتعطي الحساء للغرباء مجاناً، وهناك أفارقة يجلسون هناك ويتناولون الأكل الذي جلبوه معهم دون أن يزعجك هذا؟

ـ هذا لا يكلفني شيئاً.

أهز رأسي موافقاً.

ـ وأنت؟ أنا أحب الأشخاص الذين يقرأون.

ـ أحب أن أقضي الوقت برفقة الكتب.

يحدق في وجهي، وهذه طريقة جيدة في طرح الأسئلة.

ـ أنا وحيد. لقد قضيت سنوات طويلة في أميركا اللاتينية والآن أنا هنا مرة أخرى. أعرف القليل من الناس. أسكن في الحي القديم.

وكإشارة على أنه لم يعد لدي ما أقوله أرفع الكأس: شكراً وبصحتك. منذ شهر وهو يهتم بي هنا. كان لابد من أن

Twitter: @ketab_n

أعرفه بنفسي عاجلاً أو آجلاً. ويبدو أنه يكتفي بما سمعه مني. يضرب كأسه بكأسي ونشرب معاً.

نحن متقاربان في العمر، غير أنه أفضل حالاً مني. أول ما أدخل إلى مطعمه أطلب تذوق النبيذ. يناولني مشروباً ثم يأتي بصحن من الزيتون الأسود.

ـ إن لم يعجبك لا تدفع. يقول. أحتفظ بالنبيذ في فمي قليلاً ثم أدفعه نحو حلقي.

ـ تمام.

ونتفق.

آتي إلى هنا كل يوم وهو يناولني ما هو متفق عليه. أول صحن وهذا النبيذ.

ـ لدي نبتة مريمية. زرعتها في وعاء وهي تنشر رائحة الجوز الأخضر. غداً سأحملها معي إلى هنا. أقول.

ـ الطريق طويل من الحي القديم.

ـ نعم. أستيقظ في الساعة الخامسة. ولكن هذا يفرحني.

ثمة تأتي رائحة البحر وتنتشر في الأرجاء. يطقطق البيت أوصاله في تلك الساعة، تبدأ رائحة القهوة تفوح في أرجاء المنزل. ركوة قهوة على النار تكفي لكي تمتلئ الغرفة.

أنتبه إلى البطاقة التي ما زالت في يدي، أضعها بين صفحات الكتاب. ينهض المضيف. حان وقت انصرافي.

Twitter: @ketab_n

يجب أن أهيئ حفرة لشجرة الحور التي ستصل غداً. أعمل عند شخص يزاول إخراج الأفلام الوثائقية. أعرفه منذ ما قبل فترة أميركا. هو ابن خياط من كالابريا جاء من الشمال بحثاً عن عمل. ترك الهدوء وجرى وراء الضوضاء.

إسكافيون، عمال سكك الحديد، خياطون، حدادون، بائعو ملح، رجال موهوبون وذوو خبرة ومعرفة يتم بيعهم وشراءهم ويضطرون إلى القيام بأربع حركات منهكة.

تعهد إلي بمسؤولية الاعتناء بالحديقة. هو لا يريد زرع الأشجار أو الاعتناء بالحيوانات رغم أن الحديقة تتسع لذلك. لقد كان طالباً مجتهداً وكنت عاملاً، وكنا، كلانا، في تلك الفترة، شيوعيين. وهي كلمة باتت الآن مرمية في مكب نفايات القرن الماضي.

يبدو لي وجهه حنوناً. من بين الكثيرين ممن عركتهم الأيام فإنه مازال يحتفظ بمسحة لطيفة وأنف دقيق مثل مقدمة سفينة. هؤلاء الذين يحملون إشارة مهمة في منتصف وجوههم لابد أنهم طيبون. اسمه ميمو.

يخبرني من تلقاء نفسه عن والده الذي هاجر إلى الشمال وحبس نفسه في مصنع من أجل أن يصنع مستقبلاً لأولاده.

في كالاباريا هناك الماضي. أشجار الزيتون التي زرعها الأجداد. البيت الحجري الذي بني من أحجار مصقولة قطعت بعناية، ومن دون إسمنت. هناك قوت للعشاء ولكن ليس ثمة

Twitter: @ketab_n

مستقبل.كان أكثرنا في تلك الفترة توقف عن الاتصال بمسقط رأسهم. هو لم يفعل ذلك. واظب على زيارة أهله في أيام الأحد. وكان الجميع يتداولون في شؤون المال ويتبادلون النصائح على مائدة الطعام في المطبخ.

حتى هذه اللحظة ما زلت أتذكره ولداً صامتاً يخفض نظره وأنفه ثابت بزاوية تسعين درجة مع مستوى الأرض في حين يثرثر رفاقه ويتبادلون الدعابات.

أنا أيضاً قادم من الجنوب ويعجبني أولئك الأشخاص الذين يلتزمون الصمت كتعبير عن الرفض. يقولون لا بالصمت. من دون أية إثارة. ها هو بعد عشرين سنة مخرجاً سينمائياً. صدفة. ثمة صدف تلقي بنفسها في أحضان أول عابر سبيل. ولكنها كالعاهرات سرعان ما تتخلى عنه وتمضي مع القادم الجديد. ولكن ثمة صدف أخرى، حكيمة، تختار شخصاً وتشده إليها شيئاً فشيئاً.

الأحياء يلتقون بعد طول فراق. مازال يتذكر أمسيات تورينو حيث كنا نتناول النبيذ والزيتون والسلامي ويعمد صاحب المطعم إلى تسجيل كل شيء على حسابي. في تلك الأوقات لم يكن أحد يريد أن ينام ولم يكن صاحب المطعم يغلق المحل إلا بعد أن ينصرف آخر زبون.

مازال ثمة زبائن آخر الليل ولكن لم يعد هناك أصحاب مطاعم مثل ذاك. وهو يتذكرني. حين أنهيت العمل في الساعة

Twitter: @ketab_n

الحادية عشرة ليلاً والتقينا هنا في الحال شرعنا في تبادل أطراف الحديث عما فعلناه أثناء النهار وما إذا كنا تعرضنا للأذى في العمل وعما إذا كان الآخرون واجهوا متاعب، سواء في المدرسة أو في الشارع.

كان هناك نشاط جديد في كل يوم. تورينو مدينة الفلاحين الذين ينتفضون ضد بقية أحجار الشطرنج. ولم تكن المحلات تغلق أبوابها. الطبقة العاملة كانت ترفض ذلك. لم يكن ممكناً تمييز الأولين عن الأخيرين، الشباب عن الكهول، الغجر عن المؤدبين. هو يضحك إذ يتذكر: الشيوعية آنذاك كانت تتلخص في قيام الشباب الفقراء بأعمال نموذجية. حدث ذلك آنذاك ولن يحدث ثانية أبداً. إنه الحظ. ليس في القيام بعمل نموذجي وحسب بل في أن تنتمي إلى زمن أكثر رفقاً بالشباب. ولكي أبدل الحديث أسأله: وماذا يتعين على المرء القيام به إذن؟ فيبتسم تحت أنفه الشامخ، ملك الوجه الصغير ويقول: منذ فترة لم أتلق تحيتك. ماذا يفعل الرجل؟ أنا أمارس مهنة يتطلب من المرء أن يجمع حوله كومة من الناس، وأقل غلطة يكون مصيره الطرد.

ـ وما المشكلة في ذلك؟ ما الذي يمكن أن يدفعك إلى ارتكاب غلطة؟ أنت تتحدث عن العالم. ليس بمقدورك إذن أن تنسى نفسك. يكفي أن تكون سعيداً من العالم.

ثم يسأل عن حالي فأحكي له عن معاناتي في الأرجنتين

Twitter: @ketab_n

دون أن أثقل عليه بالتفاصيل. أذكر له أخطائي في رحلة البحث عن حياة آمنة. يعرض عليّ عملاً فأقبل من دون تردد.

قبل أن ألقي عليه تحية الوداع أقص عليه واقعة: كنت أعمل في مصنع للبناء وكان ثمة رجل يعمل مساعداً لي، في مثل عمري تقريباً، على مشارف الخمسين. كان كردياً. كان في ما مضى كاتباً. وكان يتكلم الإنكليزية. في المصانع هناك أشخاص يثيرون الانتباه. بعضهم أنهكهم التعب، بعضهم على وشك الرحيل، بعضهم بحارة، ركنوا إلى الساحل للأبد. كان أصيب في إحدى عينيه. كيف سارت الأمور؟ الجواب حركة يد من خلف الرأس. عندنا يعني ذلك أن الماضي راح وانقضى. لا أعرف ماذا يعني بالكردية. في كافيتيريا المصنع كنت أسأله إن كان يريد القهوة فيقول لا، مع هذا كنت أعطيه من ترمسي. في أحد الأيام أخرج ورقة مكتوبة بالإنكليزية. لقد عمد البوليس في أحد البلدان التي لا أريد ذكر اسمها إلى اعتقاله وإيداعه السجن. هناك عذبوه، سببوا الأذى لعينه. بات يرى الآن بعين واحدة فقط. العيون باللغة الإنكليزية هي آيس. خطأ مطبعي حول الكلمة إلى يس (نعم). بسبب التعذيب تعرضت كلمة نعم للتشويه. الخطأ المطبعي كشف الحقيقة. لقد تشوه كل شيء. نادراً ما كنت أحظى ب «يس» جميمي رداً على تقديم فنجان قهوة أو طلب مساعدة في خلط الإسمنت. لقد ألحق التعذيب من الأذى

Twitter: @ketab_n

بكلمة نعم أكثر من الأذى الذي سببه للعيون. هناك أخطاء تنطوي على حقائق.

أكرر له هذه الجملة الأخيرة كي أضع نهاية للحكاية. لكنه يريد الاسترسال في تأملاته ولهذا يروح يسألني عما أحمله في جيبي. كتاب، أقول. أي كتاب؟ كتاب مستعمل، أقرأ الكتب التي سبق أن قرأها غيري. لماذا؟ سأخبرك في مرة أخرى. يمد يده إلى جيب سترتي ولكنه لا يخرج الكتاب بل يتحسسه.

أقرأ الكتب المستعملة لأن الصفحات حين تقلب مرات عديدة وتمسدها أصابع كثيرة تستقر في العيون بشكل أعمق ولأن كل نسخة من الكتاب تملك أرواحاً عديدة. ينبغي للكتب أن تكون متاحة للجميع في أماكن عامة من دون حراسة وأن تذهب برفقة المارين بها. الذين يأخذونها معهم لبعض الوقت. أن تموت حين يموتون من أثر المحن والعذابات والأمراض وأن تغرق تحت الجسر مع المنتحرين أو تحترق في مدفأة في الشتاء أو تتمزق حين يعمد الأطفال إلى صنع قوارب من صفحاتها. باختصار أن تموت كيفما كان وأينما كان أفضل من أن تموت من الملل والوحدة، متروكة لحياة كئيبة على رفوف مكتبة.

سأخبرك مرة أخرى، أقول له حين نتصافح مودعين بعضنا بعضاً.

وهكذا ها أنذا أقضي النهار في بستان. أعتني بالأشجار

Twitter: @ketab_n

والزهور، ألوذ بالصمت طوال الوقت وبين الحين والآخر توقظني ذكرى من الماضي أو أغنية أو غيمة عابرة تزيح الشمس من طريقها وتعطي ظهرها للظل. أدور في الحديقة بحثاً عن مكان أغرس فيه شتلة شجيرة تفاح. أجد فسحة فأغرسها هناك. أهيل التراب عليها، أنظر إلى أغصانها الغضة وهي تحاول أن تحتل مكاناً لها.

الأشجار تحتاج إلى شيئين: الغذاء من تحت التراب والجمال من فوقه. إنها مخلوقات صارمة ولكنها طافحة بالبهاء. الأشياء الجميلة بالنسبة لها هي الهواء والضوء والعصافير والفراشات والنمل والنجوم فتمد أغصانها كي تصل إليها. الجمال هو الذي يدفع النسغ ليصعد في الأشجار إلى الأعلى. لأن الجمال وحده من يقاوم جاذبية الأرض في الطبيعة. لولا الجمال لماتت الرغبة في الأشجار. ولهذا أتوقف أحياناً في البستان وأسأل الشجرة: هل تريدينني أن أغرسك هنا؟ تكفي رجفة في راحة كفي التي تلتف حول جذع الشجرة. مع هذا أريد أن أتكلم مع الشجرة. إنها تجول بنظرها في المحيط من حولها وتحدق في الآفاق لتبحث عن مكان محدد تستقر فيه وتنمو.

الأشجار تصغي إلى الشهب والكواكب وأسراب الطيور وقمم الجبال. هي تحس بالعواصف على الشمس وبدبيب النمل على أغصانها بنفس القدر من الدقة. الأشجار هي الحد الفاصل بين القريب والبعيد. حين تأتي شجرة من مزرعة كي

Twitter: @ketab_n

تضع بذورها في أرض مجهولة تبدو مرتبكة مثل عامل ريفي في يومه الأول في المصنع. لهذا أدور بها في البستان قبل أن أهيئ مكان إقامتها.

في البيت أفتح الكتاب أمام الصحن ويقع نظري على قصاصة الورق. هي تدعى ليلى. مع فتحة على الحرف الصوتي الأول. مقطعان صوتيان أشبه بترنيمة.

أترك البطاقة هناك.

أمضغ قطعة من الجبن ثم أقرأ الكتاب. ولكن هذه القصاصة البيضاء تشتت انتباهي. إنها ترقد ساكتة على الحافة الخشبية للطاولة.

أنهض. أخرج إلى الشارع بحثاً عن هاتف. أترك كل شيء على الطاولة بما في ذلك القصاصة. أكتشف ذلك في كشك الهاتف. تسرني هذه الهفوات. طوال اليوم يطيعني الجسد في كل ما أطلبه منه. ولكن فجأة يرسلني لكي أركض وراء الريح وأقبض على الفراغ. وأظن أنه على حق. إنه حمار ممتاز. حين يعود إلى مضجعه يريد أن يستريح.

أقطع الشارع ذهاباً وإياباً. أطلب الرقم.

ليلى؟

نعم.

أسمع صوتها مثل قنينة شراب فتحت تواً، خفيفاً وناعماً.

Twitter: @ketab_n

ـ بين يدي القصاصة التي أعطيتني إياها وفيها اسمك ورقم الهاتف.

ـ أريد أن أراك.

ـ أنا في الخمسين من العمر وأعمل بستانياً.

ـ لا بأس. متى؟

ـ أعمل في البستان طوال الأسبوع. وأكملت الخمسين مؤخراً.

تتململ. آمل أن تكون قد ابتسمت. تقول لي أنني خفيف الدم وأنها تريد أن تراني ثانية.

يخطر لي أن لا يمكنني أن أمد لها لساني في الهاتف. أقول نعم.

تسألني إن كان لدي هاتف في البيت. أقول لا. وليس لديّ سيارة أو مسجلة أو غسالة. لديّ براد.

ـ أدعوك إلى العشاء.

ـ لست في عمر يسمح لي أن أرى النادل يحمل الحساب إلى امرأة بدلاً مني.

ـ في بيتي.

أقول نعم.

ـ هل لديك قلم؟

ـ أبداً.

Twitter: @ketab_n

ـ إذن احفظ العنوان.

ثم تعطيني العنوان والتاريخ.

ـ هل تستمرين في إعطائي أرقاماً وأسماءً؟

ـ هل ستتذكر ذلك؟

ـ إذا فشلت سأتصل بك.

ـ اتفقنا إذن.

ـ يبدو يا ليلى أنه لا يهمك أن تعرفي اسمي.

ـ ليس في الحال.

ـ على أي حال اسمي ليس جميلاً كاسمك.

ـ هل يعجبك؟

ـ مثل افتتاحية أغنية تحفظ لحنها أولاً وبعد ذلك الكلمات.

أقفل الخط. في البيت أتناول الطعام ثم أقرأ. ليست ثمة قصاصات ورق أخرى من شأنها أن تبلبل عاداتي المسائية.

كيف تكون ليلى؟ أحاول أن أتخيلها من جديد. امرأة تبحث عن الرجال. جنرال في ساحة التدريب يعرف من يختار من بين آلاف الوجوه التي تقف في الطابور. في الشارع ينظرون إليها غير أنها هي التي تبادر إلى التحديق. أتخيل. ليلى تقيسك بعينيها الحاذقتين وتجدك ناقصاً. هل ثمة في شخصيتي ما يستحق النظر إليه؟ أنا رجل أشبه بالكرتون لأنني أعمل في الهواء الطلق. لربما أعجبت بشخص يجلس في المقهى ويتصفح كتاباً بدلاً من أن يجمع فتات الخبز.

Twitter: @ketab_n

هي طويلة القامة. لا تضع شيئاً في أصابعها أو حول رقبتها. صوتها غامض وحنون. يداها قويتان. العظمتان في وجنتيها بارزتان، تصنعان الابتسامة. نعم، تقاطيع وجهها متناسقة. شفتان مكتنزتان، أسنان سليمة. منظرها وهي تأكل يبعث على السرور. صدغان ناعمان يزيدهما نعومةً قوس الشعر المضموم. منخاران يعبان الهواء عباً. أريد أن أحمل لها باقة من الزهور التي أزرعها في البستان وسأشرح لها من أين تأتي. الحكايات تسر الشباب. بالكاد بلغت ليلى سن الثلاثين. أفكر بالأشياء التي لن أرويها لها. هناك الكثير في الحياة مما ينبغي حذفه. سأخبرها عن زهور جزيرة حيث يرعون الماعز ومن حليبها يصنعون أفضل أنواع الجبن الذي تفوح منه الرائحة العطرة للبحر المتوسط. سأحدثها عن كعكة عيد الميلاد، عن الجدة التي تسهر الليل كله كي تصنع ألف كعكة تقليها وتغمرها بالعسل، عن العمل في المياه المالحة، عن الأعشاب الحمر في الأحواض المغلقة حيث يتحول الملح إلى حبيبات كريستالية تعمي من ينظر إليها. لا يخفض العمال نظرهم قط بل يبقون يحدقون في السماء التي تبقى أقل قسوة من حوض الملح حتى في شمس منتصف النهار. وعند المغيب يطغى اللون الأحمر على كل شيء ويلاحقك أينما ذهبت. حتى الظل يتحول إلى قماش أحمر.

هذا يكفي. لا مزيد من الحكايات.

* * *

Twitter: @ketab_n

أطل الفجر على القطار الذي يأخذني إلى المدينة. تراجع الظلام وبدأ البياض ينتشر. ولكن الضوء لا يكفي للقراءة. عربة القطار قديمة ولهذا فهي تئن وتقرقع. أنظر إلى الأرض، أفكر بالحديقة. غرس الأشجار يمنح السعادة. الشجرة أكثر شبهاً بالشعب من الفرد. تتشبث بالأرض بقوة وتمد جذورها بشكل سري فإذا ما صمدت فإنها تفسح المجال للأجيال الصاعدة من الأغصان والأوراق. حينئذ تلتف التربة حولها وتحتفي بها وتدفعها نحو الأعلى. الأرض تشتاق للأعلى. للسماء. إنها تدفع القارات بعضها إلى بعض كي تنشأ قمماً ومرتفعات. وهي تلتصق بالجذور كي تتسرب إلى النسغ وتصعد معه. وإن كانت في الصحراء فإنها تتحول إلى غبار من أجل أن تصعد إلى الأعلى. الغبار هو شراع يمخر عباب الصحراء برشاقة. تدفعه الريح الجنوبية من إفريقيا فيسرق البهارات من الأسواق ويرشها على المطر. العالم هو رئيس ورشة البنائين.

بمثل هذه الخواطر يعمد المسافر بالقطار إلى تزجية الوقت. أنا، بخواطري عن الحدائق والبساتين والتشذيب والتقليم والعناية بالزهور والنباتات، أبدو مثل البيضة التي تدعو الدجاجة لأن تهجع. قليلاً من الندى وسيكون كل شيء على ما يرام يا سيد الجنائن.

أفكر بالموضوع على هذا النحو: لا يتطلب الأمر أي

Twitter: @ketab_n

جهد. هناك راتب وحسب. ومع هذا فإن الأفضل للمرء أن يضع رأسه بين رجليه ويطرق بوجهه إلى الأرض ويحني رقبته نحو التربة ويعتني بها. هذا أفضل من أن يفعل ذلك للناس. وفي ما يبقى من الوقت يمكن الالتفات لهذا وذاك فتؤدي خدمة ما وتحلق ذقنك من أجل امرأة وتبذل ما بوسعك لتقاوم من يسيء استعمال سلطته.

لقد قضيت عمري في معاينة الأرض والماء والغيوم والجدران والمعامل أكثر من معاينة الوجوه. وهذا كان مصدر سعادتي. والآن ها أنذا أصطدم بوجه ليلى: وجنتان مصقولتان كالنحاس، شفتان مكشرتان، ملامح متناسقة. حين أفكر بها لا أتذكر على الإطلاق أنني رأيت وجهاً كاملاً لامرأة.

* * *

أنا آخر شخص ينزل من القطار. وهذه عادة سيئة لشخص يهجس بأن ثمة على الدوام من يتبعه. بعد أن يمضي المسافرون تصبح المحطة فارغة وعلى المرء أن يكون حذراً. تشغلني عادات من العالم الآخر.

في الحديقة أرتدي الأوفيرول فوق ملابسي. الجو يمتلأ بهواء شتائي قارس يجعل الأرض تصدر صريراً تحت وقع الخطوات. تحت شجرة الغار هناك شيء صغير، أصفر اللون. إنه عصفور. فشل في التشبث بالغصن وسقط على الأرض مثل ورقة يابسة.

Twitter: @ketab_n

الريح الشمالية تصفع الوجه. ولهذا يستحسن ألا يحلق المرء ذقنه صباحاً بل أن يفعل ذلك في المساء. أحمل معي عدة الحلاقة. بعد العمل سأذهب إلى بيت ليلى. سأنام تحت مظلة الحديقة لأنه لن تكون ثمة قطارات بعد العشاء. أسوي الأرض تحت أشجار الغار. هذه الأشجار تحمي طيور السنونو التي ترقد تحت أوراقها الكثيرة الدائمة الخضرة. إنها تتصارع في الليل من أجل الأماكن الأكثر دفئاً بالقرب من الجذع. تتصارع من أجل أن تعيش. ثم تبدأ تهمس في ما بينها. يلوح لي أنها تردد الصلوات. أشذب أشجار الغار في الربيع فقط، حين لا تعود طيور السنونو بحاجة إلى الاحتماء بها. أشعر بالفرح عندما أكوم أوراقها المتساقطة ثم أحرقها. تنبعث رائحة زكية تدوخ المرء وتعيد إليه الذكريات. وقت الغداء أجلس كي تغمرني هذه الرائحة وأنا أتناول قليلاً من الزيتون الأسود. في مثل هذه الأيام أفهم الحساب بشكل أوضح. لا ينهض الأحياء فوق مستوى الأموات بل إنهم يقفون بموازاتهم. المنجل منحن ليس مثل الهلال بل مثل البيضة. الخبز ينتفخ ويتخذ شكل كف الخباز، وحين ترفعه إلى فمك فإنك إنما تمد يدك إلى الأمام.

عندما يلوذ المرء بالصمت أثناء العمل تراوده أفكار حول السباحة والطيران. أتذكر أحد أيام شهر أبريل قبل عدة سنوات حين كانت السماء فوق مدينة الخليل مكتظة بطيور اللقلق وهي تهاجر إفريقيا عائدة إلى أعشاشها فوق سطوح البيوت في أوروبا.

Twitter: @ketab_n

أمام صحن من حساء الجبن أنتهي من سرد وصف مدينة أوديسا. لم أر البحر الأسود قط. لا أعرف شيئاً عن هذا البحر طالما أنني أجهل من أين تنبع الأنهار التي تأتي من سهوب روسيا وتحافظ على توازن البحر المتوسط. أجهل الكثير من الأشياء بحيث يصعب علي أن أحصرها. ومع هذا فإن هذا الجهل يخلق عندي في بعض الأحيان نوعاً من الحنين. أتصفح كتاباً عن مدينة مليئة بأشجار التين وقطاع الطرق والبحارة واليهود. في هذه الأثناء يدخل إلى المطعم رجال سود البشرة يرتجفون من البرد. أدعوهم إلى الطاولة حيث ثمة ثلاثة كراسي فارغة. أطلب زجاجة من النبيذ وأعتذر عن القراءة. هم ثلاثة، من أعمار وجنسيات مختلفة. يخرجون أشياء من جيوبهم ويشرعون في تناولها. أيدينا تملأ سطح الطاولة. أقرأ عن أوديسة وأسمع صوت أنفاسهم الذي يشبه الهسهسة. في الخارج هناك برد يعصر الصدور، ولهذا يعمد هؤلاء إلى تحريك أياديهم كي يحركوا دمهم. يشربون القهوة ثم يغادرون مصافحين إياي بقوة.

بعد الظهر تأتي شتلة شجرة الحور. أضع جذورها في التراب وأسندها بثلاث دعامات ثم أرش السماد عليها وأرويها. إنها ذات جذع قوي ولهذا فهي تتطلب جهداً زائداً. ومن المخاطرة أن يعمد المرء إلى إعادة غرسها في مكان آخر. أحياناً يصيب الحزن هذه الشتلات فترفض أن تعيش فأدور من حولها وأدندن لها أغان كي أرفع معنوياتها وأربطها كي تغدو قوية.

Twitter: @ketab_n

يحل الظلام. أغسل وجهي وأخرج عدة الحلاقة. لا أضع الصابون، يكفي أن أترك الماء دقيقة على وجهي فيصبح رطباً وتغدو الحلاقة هينة. أفرك يدي كي أزيل ما تبقى مما علق بهما من تربة الشجرة ثم أشد ربطة العنق القديمة وأخرج.

أدخل البيت. أمد يدي مصافحاً ثم أستدير كي أخلع المعطف. وبينما أنا كذلك أشعر بأصابعها تمتد إلى رقبتي وتنتقل من صدغ إلى صدغ. لا أفهم لماذا تفعل ذلك. أستدير ببطء. تقول أن ثمة في رقبتي خطان متوازيان، كما كان الأمر مع والدها. أخدودان. تقول.

أسالها إن كنت أشبهه من الأمام أيضاً. لا. تقول. ولكن سرعان ما تخطر لها فكرة فتأخذ يدي، تقلبهما، تقول أن كفي يشبهان كفيه ولكن ظهر اليدين لا. باختصار هناك شبه في القفا وليس في الوجه.

ترتدي ثوباً ضيقاً يشد على كل نقطة في الجسم، وجاكيتة غولف بيضاء كأنها شجرة لوز مزهرة. مازلنا واقفين في الممر.

تقودني إلى الصالون. إنه واسع جداً. أرى الصحون على الطاولة والكراسي والصوفا ولوحات كبيرة ولا أكترث للمزيد.

* * *

أستغرب من نفسي. من دون أدنى ارتباك أجلس مستريحاً على الصوفا وأرفع بنطالي إلى الركبة ثم أسالها من أين هي.

Twitter: @ketab_n

روسيا واسكتلندا من جهة الأم وصقلية وليغوريا من جهة الأب.

أنت أميرة، تحملين الجغرافيا في دمك.

أخذت اسمها من جدتها التي ولدت على الضفة اليمنى من نهر نيفا. نيفا نيغوي، السماء فوق النهر. إنها أغنية. علامة جديدة وحسب أضيفت إلى مملكة الأحلام حين ولدت. هناك حيث تتردد ترنيمات الأطفال ويتهادى صوت الجدة في الحلم.

تسألني إن كنت أنا أيضاً أميراً من حيث الأنساب. لا. آبائي وأجدادي من منطقة واحدة. ولكنني أخترع حشداً من الأجداد الخياليين. في الليل أشعر بحنين إغريقي إلى النجوم التي تتكدس أسماؤها في الكتب. إلى أنساب الأشجار وقواعد الشهب.

تجلس ليلى على مسند الكرسي وهذا يتيح لي أن أراها من تحت ويسرني ذلك.

أستمر: في الليل وتحت سماء صافية أدرك أن العلم نشأ من الجمال، من الرغبة في فهمه. عندما ألتقي بامرأة ينهض النابولي في داخلي، أي الرغبة في أن أجعلها تضحك. من دون ضحكة في البداية لن يكون ثمة طعم للقبلات. لكنني لا أقول لها ذلك. أثناء العمل أصير مثل نجار ينتمي إلى البحر الذي تهب عليه عواصف مفاجئة، غير متوقعة وغير معروفة،

Twitter: @ketab_n

بعكس المحيط الأطلسي. ولهذا فأنا أتلائم مع كل الظروف. أمام المرآة تنتابني قشعريرة عبرية عندما أحلق ذقني وأمام قطعة جبن أحس أني أملك أنفاً فرنسياً وحينما أرفع كأس النبيذ أشعر في راحة يدي برجفة آتية من أحد الأجداد وهو يحفر الأرض الصلبة على سفوح جبال بيمونتي.

تمرر ليلى نظرها على وجهي في استطلاع سريع. أترك لها وقتاً كافياً لذلك ثم أتابع: أمام البحر أشعر برزانة أبناء الجزر الذين يصنعون السفن للقيام بصيد الأسماك في الشتاء.

هل تكتشف نفسك وأنت تتخيل؟ تسألني. أتخيل قليلاً وأبالغ قليلاً وأشعر بالعطش قليلاً. تعتذر وتنهض. تنهض فتبدو أطول مما كانت عليه. أو ربما أنا غصت عميقاً في الكرسي فيما يفصلها ذراع عن السقف.

نبيذ؟ نعم. جبن؟ نعم.

أنهض. أخرج من جيبي علبة فضية وأستخرج منها الوريقات التي تحتوي المسحوق. أرش واحدة منها على شطيرة الجبن. إنها قوية الرائحة. تقول. هي نوع من البخور التي تطرد الشياطين. أقول. تجلس بالقرب مني وتجعلني أرش واحدة على الشطيرة الأخرى.

يداك فقط تستطيعان أن تستخرجا بخور المسحوق. تقول. تعطس. يشكل أنفها زاوية مستقيمة مع سطح الطاولة.

* * *

Twitter: @ketab_n

أنا أنظر إلى مسألة الزوايا على هذا النحو: الزاوية الحادة جيدة والزاوية المنفرجة سيئة والزاوية المستقيمة بين بين.

ترفع كأسها كي تضربه بكأسي لنشرب النخب. أدير يدي بحيث تحتك فقرات أصابعي بفقراتها. اليدان أولاً ثم الكأسان. أين تعلمت هذا؟ في عالم آخر. في زمن غريب حيث كان أمراً مدهشاً أن يعيش المرء يومه ويبقى على قيد الحياة لليوم التالي. ستخبرني عن هذا في ما بعد. تقول. أهز رأسي بحركة نفي، غير أنها لا تلاحظ ذلك. يبدو أنك تعرف الكثير من الأشياء. تقول. أبداً، لا أعرف مثلاً أية جهة من شطيرة الخبز مدهونة بالزبدة. تضحك. هذه كانت واحدة. أقول لنفسي وألاحظ كيف يتسع فمها وهي تبتسم ويتحرك اللسان فوق الأسنان ويصير أنفي يحكني في أثر ضحكتها. تسألني عن عملي. أعمل بستانياً. كثيراً ما أجلس على ركبتي. هكذا أستهلك بناطيلي. أقول ذلك وأعدل بنطالي على ركبتي.

كيف حال الأرض؟ تسأل، وتنتظر أن أستأنف المزاح الذي بقي معلقاً. لا. آخذ الأمر بجدية وأقول شيئاً آخر. هناك نوعان من الأراضي. أقول ذلك مستديراً ناحيتها حيث تجلس بجانبي. نوع يوجد الماء في باطنها. يكفي أن تحفر قليلاً حتى تزدهر. هذه أرض سهلة. ونوع آخر يعتمد على السماء. السماء معينها الأوحد. وهذه الأراضي فقيرة، سارقة، لا تتردد في سرقة الماء من الهواء والليل. وما إن تحصل على

Twitter: @ketab_n

القليل منه حتى تبادر فتحوله ألواناً تستخرجها من نسغ التراب وتضع قوة السكر في الفواكه وتنشر الرائحة الزكية في الهواء. إنها أراضي السماء الجافة. وأنا أفضلها على غيرها. هذا المسحوق يعود إليها.

تصغي إلي بشفاه مشدودة وتسألني إن كنت أدون هذه الأشياء. لا. لا أدون شيئاً. ولكنني أقرأ الكثير. الرسائل؟ نعم، أكتب رسائل. رسائل حب؟ حين تسألني ذلك أتذكر قصة أريد أن أرويها لها كجواب على سؤالها. سأروي القصة ولكنني جائع. أقول.

نجلس حول الصحون فتصب حساء شهياً من العدس والفاصولياء. أحتسي ملعقتين ثم أشرع في الحديث.

* * *

منذ فترة جاءت امرأة لزيارتي. فتحت لها الباب. كانت كما كانت عليه منذ عشرين سنة. وهذه فترة زمنية يبدو الآن كما لو كانت رحلة بالترام. كانت تريد أن تستطلع أخباري. أن تعرف ما إذا كان بالإمكان التوفيق بين زمنين. أخرجت من جيبها رسائلي. قرأت الرسائل لأول مرة، فأنا حين أكتب الرسائل لا أقرأها. أنتهي من كتابتها وأضعها في المغلف وأرسلها. آنذاك والآن.

خلف الورقة القديمة لمحت وجهي القديم، قبل أن أغير العالم. مازال صالحاً لكل شيء. أخبرتها أن احتضانها الحنون

Twitter: @ketab_n

لي يعود إلى ذلك الزمن الذي كنت فيه شاباً يافعاً وقلت لها أنها امرأة مثالية وفي مقدورها أن تعثر على شاب من ذلك الطراز. باختصار قلت لها أنني تغيرت. قالت لي: إذا لم تعد كما كنت فهذا يعني أنك لم تكن كما كنت. ثم نهضت وارتدت معطفها وخرجت بهدوء وأناقة دون أن تنبس بكلمة. مازلت حتى الآن أقول لربما كانت على حق. هذه هي القصة. ليلى تسأل لماذا. أرى أن بعض الشباب يتلقون جوائز عن قصائد كتبوها في شبابهم. لا أحد منهم ينهض ليقول: أنا الآن لست ما كنت عليه آنذاك. أنا لا أستطيع أن أتصرف مثلهم. أنا لن أتردد في القول: هذه الجائزة التي تحملينها، أيتها السيدة الخالدة، والمتمثلة في زيارتك لي، هي في الواقع زيارة لخالي. أنا الآن خال ذلك الشاب الذي كتب تلك الرسائل. غير أنني اكتفيت بالقول: أنا الآن لست ما كنت عليه آنذاك.

* * *

أحمل الكأس التي أمامي. إنها أفضل من الكأس الأخرى.

والرسائل؟ هل تركت الرسائل وانصرفت؟ هل مازلت تحتفظ بها؟

لا.

تمسد ليلى ظهر يدي بأصابعها. لا يظهر مني أي رد فعل. أحبك كما أنت. حجر في نهر.

Twitter: @ketab_n

أحدق في نقطة من وجهها. تنتابني رغبة في أن أقوم وأزيح الطاولة جانباً وأضمها وأضع يدي على ردفيها. لكنني ألبث ساكناً.

وأنت تحبني. هذا ليس سؤالاً. تقول.

وهل يهمك الجواب؟

إذن نحن متفقان. تقول.

نعم. ولكن ليس كما لو كنا قبل عشرين سنة وأكون بصحبة فتاة جميلة ماكرة. أقول ذلك لمجرد أن يستمر الحوار.

هذا ليس صحيحاً ولكن لا بأس. تقول ثم تنهض وتفتح الموسيقى وتمسك بيدي لأنهض. نحن متساويان في الطول.

أتذكر الرقصات في الحفلات العامة. أقول: لست راقصاً بارعاً من ذلك الصنف الذي يحوم حول النساء بقدميه. أضع ذراعي بهدوء خلف ظهرها فأتحسس على الفور عظام عمودها الفقري. يدها في يدي مثل رغيف خبز طازج. أقربها من أنفي. أتأرجح كغصن خريفي. تتساقط الأوراق مني. يلتصق وجهها بوجهي. وهذا لا يشوش أفكاري بل يجعلها تختفي بالكامل.

هل تفكر بشيء؟ تسألني. أنظر إلى شعرها. أتخيل يدها وهي تمر فوق شعرها الذي يتماوج مثل موجات البحر.

Twitter: @ketab_n

ـ أفكر بالمشط الذي يخترق شعرك ويبدو مثل ريح المحيط الأطلسي الذي يصنع أمواجاً عالية.

يلوح لي أن جبهتينا تقتربان من بعضهما.

ـ أسمعك الآن تصفينني. تقولين أنني شخص غير مساوم وأن الأشخاص الذين هم على هذا النحو يتركون الحرية للآخرين. لا أحد يتبعهم ولهذا فهم يمضون في طريقهم دون أن يلتفتوا إلى الوراء.

أتمايل مع الموسيقى الهادئة. صوتها الرزين وهي تتكلم يحرك الدماء في عروقي. ليس جمالها، ولا، بالمناسبة، كلماتها. تتسع فتحتا أنفي حين يلتقي جسدانا في الوسط.

ـ أتستنشق شيئاً؟

ـ نعم، أستنشق كلماتك.

ـ هل أنت غير مساوم أم لا؟

ـ ليس إلى هذه الدرجة. إذا أردت أن تشكلي فكرة عني لا تذهبي بعيداً كثيراً، لا تبالغي، انزلي درجة وآنذاك أقول لك: هذا أنا.

ـ هذه أنا، تقول.

* * *

تقرب جبينها، ببطء حارق، وتضعه على جبيني. ينهمر شلال من شعرها على صدغي حيث الشعر القصير وتدخل

Twitter: @ketab_n

أنفاسها في أنفي ولا أعود أحس بأنفاسي ونبقى هكذا ملتصقين بحيث لا نقدر أن نتحرك. الآن تضع يدها على رقبتي وتدفع وجهي نحو وجهها فتلتصق شفاهنا. الآن نتنفس من الأنف فقط. ثم نترك الأيدي تتحرك كي تستريح. نلزم الصمت ولا نتفوه بشيء. أحاول أن أكون حذراً كي لا أثقل عليها بجسمي وهذا ما يفسح المجال لها كي تضغط علي.

هي فوقي الآن بعد أن رقدت على صدري بخبطة. هكذا يتم قطع الأشجار. خبطة لشقها ثم رجرجة لسحب الفأس من الشق.

تستمر ليلى في خبطاتها على صدري. بدافع الكبرياء أتحمل ذلك لبعض الوقت. ذلك الوقت الذي تستغرقه ضربات الفأس كي تصل إلى لب الشجرة. ثم أستسلم وأنهار وكذلك تفعل هي. ثم أحس بيدها تمسد جسدي وتنشفه. أغفو قليلاً. أفتح عيني وأبحث عن ملابسي. أمامي طريق طويل للوصول إلى البيت. إبق هنا. تقول. سأبقى هنا إن كان هذا يسرك وإلا فالأفضل ألا أزعجك. أحب أن تزعجني في السرير. تقول، ثم تسأل إن كنت أحب التحدث معها. قليلاً. أقول، ثم أسألها لماذا هي وحيدة. ضرورات العمل. هل تحصلين على النقود بأن تعيشي وحيدة؟ بل أحصل على النقود من الرجال، فأنا أذهب مع الرجال مقابل المال. ليس في الشارع بل بمواعيد. ألوذ بالصمت. آمل ألا تقدم لي فاتورة الحساب.

Twitter: @ketab_n

تسألني إن كنت أحتقرها. لا. أقول.

ـ الآن عرفت وضعي.

ـ لا. الآن أعرف أنك أخبرتني ما كان يترتب عليك أن تخبريني به. ليلى، ليس لدي الآن ما أدفعه لك.

ـ لن تدفع شيئاً.

ـ لن أدفع أبداً.

ـ لا يهم، المهم أنك لا تحتقرني.

نطوق بعضنا بعضاً. تقول: شدني إليك. أضمها بيد وأشدها باليد الأخرى نحوي. أسألها: **هل هذا الـ«شدني إليك»** كاف؟ تبتسم وتهمس بنعم في أذني. على هذا النحو سأقع في غرامك. أقول. إنها كذبة ومع هذا أقولها. الرجال لا يقعون في غرام من يمارس هذه المهنة. تقول.

ـ الزبائن لا يفعلون ذلك، ولكن قد يحدث هذا لبستاني طفيلي مثلي.

* * *

ننهض. هي تحدق في أنفي، أما أنا فأتطلع إلى السقف. أتذكر الليالي التي نمت فيها دون أن تكون ثمة مجرد ورقة تفصل بين رأسي والسماء. أتذكر الأيام والدروب التي يبدو مثل خطوط مرسومة في مخطط توضيحي مرسوم بشكل اعتباطي.

Twitter: @ketab_n

لا يجد الهارب أمامه ميداناً فسيحاً بل دروباً كثيرة مسدودة. أخوض في الزوايا والمنعطفات، في الليل أسير في الفضاء الرحب مشياً على الأقدام. صوب الجنوب. العالم كله ورائي. حتى النجوم تغدو مثل كلاب تلهث في أعقابي. الآن معك سأنام ملء جفوني وأنا أفكر بتلك السماء الجنوبية.

أي جنوب. تسأل.

جنوب الكرة الأرضية. أقول. برج الجدي. السنطور. الذئب. الشراع. الصليب.

تسألني إن كنت أعرف النجوم. أذكر لها أسماءها. أعرف هذه الأسماء ولكنني لا أعرفها. مجرد ذكرى بعيدة. تسأل: ولماذا هنا؟

- لأن ثمة حرب.

- أية حرب؟

- حرب. توجد هناك حروب على الدوام.

- الجنود يحبون مهنتي.

- ليس لدي ما أقوله في هذا الموضوع.

- وجهك يفصح عن هذا.

تقول ذلك وتمرر ظاهر يدها على وجهي. الوجوه كتب.

- الأيدي أيضاً. أقول. والغيوم وجلد النمر وقشرة الفاصولياء وقفزة سمك التونا في الماء. كلها كتابات. نتعلم

Twitter: @ketab_n

الألفباء ونحن نجهل قراءة الأشجار. أشجار البلوط هي روايات. أشجار الصنوبر كتب النحو. أشجار الحور أناشيد. أشجار التوت أقوال مأثورة. أشجار السرو مرافعات قضائية. أشجار التفاح اتهامات. شجرة الورد أغان. شجر الغار نبوءات.

ـ تكفيني قراءة وجهك. تقول.

ـ أي صفحة تفضلين؟

ـ الصفحة الأخيرة. الرقبة مع الخطين المتوازيين، مثلما كان أبي. ثمة رجال يشرعون في التحدث عن الأشياء الحميمة حين يشربون، أما أنت فإنك من ذلك الصنف الذي يكشف أسراره قبل النوم.

يصبح صوتها خشناً مثل ورق رمل يحف خشباً. أشعر بالنعاس ولكن بدلاً من النوم أبدأ أتكلم وأروح أركض خلف الكلمات وأبدو عاجزاً عن **الإمساك بها** وأسمع نفسي أقول: في داخلي ذلك الشيء الذي يوجد لدى الكثير من الرجال، الحب، الانفجار، بضع جمل مليئة بالأشواك من دون رغبة في التحدث عنها. ونحن دزينة من الرجال المختلفين. ميزتنا الوحيدة أننا نعيش ونكتفي بالنظر إلى راحة الكف مساءً والتيقن من أن الغد سيكون على ما يرام. الليل خياط يرتق الجلود ويضمد الجروح ويبدد التعب. أصيخ السمع لكلماتي التي أخذت صوتي رغماً عني. الآن تعتذر مني. الآن أستعاد

Twitter: @ketab_n

صوتها رقته وأصبح مثل ماء بارد على وجهي. تحتضنني وتكرر الاعتذار، لا أعرف عن ماذا. لا أسألها. أضمها إلى صدري إلى أن أغفو.

* * *

أترك البيت قبل الفجر. أشرع في العمل فوراً كي أدفئ نفسي.
أصنع ممراً مرصوفاً بالحجارة بمحاذاة أشجار الكرم.

ثمة رجل طويل، كهل إفريقي، يشير إلي من البوابة. أذهب إليه. يعرف بنفسه. يمد يده إلي. يسأل عن صحتي وعن العمل. أجيب وأبادله الأسئلة نفسها قبل أن ندخل في الموضوع. لا أعرف ما هو الموضوع الذي جاء من أجله ولكنني أفسح له المجال وأدعوه إلى غرفة الأغراض وأضع ركوة القهوة على موقد الغاز. يفرح للدعوة. تفصح ابتسامته عن أسنان ناصعة البياض. هنا هو يبيع الأشغال اليدوية. في بلده يربي الحيوانات. يأتي إلى إيطاليا بين الحين والآخر، ولكن ليس أكثر من مرة في السنة، ثم يرجع إلى بلده. يمص شيئاً في فمه. ليس قطعة سكر بل هي نواة حبة زيتون. هو يحب الزيتون الأسود. ويحب الزيت لأنه قوي بما يكفي لأن يخترق النواة ويستقر فيها فيصير ممكناً التلذذ بامتصاصها. هو يحب طعم النواة ويظل يبرمها في فمه إلى أن تصبح ملساء وتفقد طعمها. هناك رفقة في حبات الزيتون. حفنة منها تدوم طوال اليوم. القهوة تصعد إلى عنق الركوة فتنتشر رائحتها.

Twitter: @ketab_n

قبل أن يرتشف القهوة يردد صلاة الشكر. أنت لا تصلي؟ يسألني. لا ، لا أفعل ذلك. أنا أصلي. يقول. قبل أن أضع أي شيء في فمي. أصلي كي أسند النهار تماماً مثلما أفعل حين أدع دعامة لنبتة البندورة. أبارك هذه القهوة، قهوة الصداقة.

من السهل لشخص من إفريقيا أن يربط الأرض والسماء بخيط. يحمل فنجان القهوة الأبيض في راحة يده الرمادية مثل الحجر. نشرب القهوة جالسين جنباً إلى جنب على المقعد. أقول أن لغته الإيطالية جيدة. يقول أن اللغة هي أكثر ما يسره. هل الحياة صعبة هنا؟ أسأله. لا. بل هي حلوة. يجيب. ولكنه غير راض عن الناس. ومع هذا فالحياة حلوة هنا. حين يخرج يرغب في التحدث مع الناس. ولكن لا أحد يتجاوب معه. هو ليس راضياً عن الناس، يكرر، ولكن الحياة حلوة هنا.

أرفع الفنجانين وأسأله إن كنت أستطيع مساعدته في شيء. نعم. يقول، ويشير إلى زهور الميموزا. يقول أنها تفتحت تواً وهو يريد أن يأخذ باقة منها كي يبيعها للمارة في الشارع.

أحضر له باقة كبيرة من الزهور. يفرح ويسألني عن الثمن. لا شيء. هناك الكثير منها وقطعها يفيد. تعال وخذ منها طالما بقيت قائمة. ولكنه يريد أن يدفع. لا يريد أن يأخذ شيئاً مجاناً.

ـ إذن اجلب لي زجاجة نبيذ حين تنتهي من كل الزهور. سنشربها معاً.

Twitter: @ketab_n

نجلس على الأرض. يخرج سكينة حادة ويبدأ بجمع باقات. ثم يذهب. لون أسود يحتضن اللون الأصفر. اللونان يضمان بعضهما بعضاً ويتوهجان.

* * *

أرى الأغطية الصوفية المتروكة في غرفة الأغراض فأتذكر سرير ليلى. من بطني الفارغ تصعد ذكرى عناقنا. في الشارع، في الطريق إلى المطعم، أحاول أن أتذكر. تخطر لي مشاهد غامضة وفي الأخير أتذكر مرفقها فيما الفجر يبدأ في الالتفاف حولنا.

أضع صحن الحساء بيني وبين الكتاب المسنود إلى المصفاة. في الخارج تسطع الشمس وفي الداخل هناك الفراغ الذي تركه أولئك الجنوبيون الذين كانوا هنا يوم أمس وكانوا يرتجفون من البرد. الملعقة تستطيع القراءة. تشق طريقها إلى الصحن لوحدها. الشوكة بحاجة إلى اهتمام أكبر. أتناول حساء بطاطا غني ببهارات حمراء، وفي الوقت نفسه أتابع قراءة مغامرة بحرية غنية بالعطور المكتوبة ولا أنتبه إلى ليلى التي تقف أمامي منتظرة أن أرفع عيني عن الكتاب. أراها حين أقلب الصفحة. يا إلهي. أنهض. أرفع عيني إليها. أمد لها يدي. أنقل الكرسي، يقع الكتاب. باختصار أريد أن أعبر عن اهتمامي الكبير بها تعويضاً عن انتظارها.

لا أترك بطاقات مكتوبة ولهذا يتعين عليها أن تخمن.

Twitter: @ketab_n

- تنتظرين مكالمة مني بعد العمل.

- كذاب.

تلقي نظرة على عنوان الكتاب. تطلب صحن سمك. أنظر إليها. أقول لها: تبدين رائعة يا ليلى. تضعين مرفقيك على الطاولة مثلما تفعل ملكة حينما تجلس. تجلسين منتصبة القامة مثل سفينة تمخر عباب البحر. ما الذي يجمعك إلى بستاني؟

يا لها من مجاملة. تقول. ثم تبدي الانزعاج من شخص يرمقها. يدفعني الفضول لأن أنظر فألمح رجلاً أدار وجهه تواً إلى الطرف الآخر. تقول أنه من المريح أن تكون مع رجل، بستاني مثلاً.

أضع الكتاب على طرف الطاولة ويلوح لي أننا نبدو الآن في هيئة «يساوي». هي وأنا رقمان تتبعهما إشارة «يساوي». لا أعرف أية عملية حسابية نحن. بم أفكر؟ أروي لها حادثة الزنجي وزهور الميموزا. تطلب مني أن أهيئ لها غصناً. تضع كفها على يدي. أرتبك قليلاً أما هي فلا. إنها ملكة الرجال. أصابع طويلة، يد عريضة تشبه الفم. أنفاسها مليئة بالعزم. تترك يدها على يدي. كأنها تقبض على حجر. تقول ذلك وتضيف أنها تريد أن ترميها على زجاج النافذة وتهرب. أتخلص من ارتباكي. خلال خمس دقائق وقعت في غرام امرأة تعطي جسدها للرجال. لن يطول ذلك؟ فليكن. لينتهي الأمر متى حان وقت ذلك. المهم أنني أحبها الآن. أنا

Twitter: @ketab_n

المهووس إلى حد ما برفقة الكتب. شعري قصير وأشيب ولم يتساقط منه شيء تقريباً. قدماي عريضتان. أسناني سليمة. ظهري ثخين ويابس مثل خشب أجوف. أنا أحب امرأة تقف قبالتي بنصف متر. أستغرق في عملية هندسية: أجمع النقطتين اللتين تشكلهما عيناها. أمد خطاً إلى الأعلى نحو لوحة للجبال وإلى الأسفل حيث ترقد قطة. عيناك تربطان قطة نائمة بغابة مليئة بالقبرات.

لا أفهم هذا. تقول. أشرح لها الأمر. تتظاهر بالارتباك. ألديك وساوس أخرى. نعم. أن أعرف، حيثما كنت، ولاسيما في الأماكن المغلقة، اتجاهات البوصلة. باب المدخل، أخفض صوتي كما لو كنت أكشف سراً، يقع في جهة الشمال. تتخذ سحنتها هيئة التواطؤ. أنت في الجنوب وأنا ينتابني شعور من يعود إلى هناك. آخذها إلى الحديقة. أقطع غصناً. الآن باتت النقاط الصفر تغمرها هي أيضاً. هل سأذهب إلى بيتها في ما بعد؟ تسألني. نعم.

أعود إلى العمل. أحس بشيء من الإرهاق. تغمر الشمس الأرض بضيائها فتنتفي الحاجة إلى بذل الطاقة من أجل التزود بالحرارة. أجد أن من الطبيعي أن أشعر بالتعب بعد ليلة طويلة وأنزع من ذهني فكرة تأجيل اللقاء الثاني عند ليلى. التردد يضجرني.

أنبش التراب من حول الأزهار لكي يتاح للجذور أن

Twitter: @ketab_n

تحصل على الهواء. أفكر بالجنوب حيث الأيام مليئة بالمشاكل. كان الموت يخيم علينا وينتزع بعضنا من بعض وينقض على الألوف من الأحياء ويضعهم في الأكياس. كان الحب آنذاك يتجسد في عناقات حارة. كان عبارة عن رغبة في البقاء مرتبطين. وخلف كل عناق، خلف كل تحية، كان يقبع وداع سري، صامت. كان غريباً أن يعرف الجميع أن الموت يتربص بهم ومع هذا لم يكن أحد يودع أحداً.

اليوم يكفيني مثل هذا الوداع كي أنسى. أنبش وأبدو كما لو كنت أنبش من حول الأسماء هنا في أوروبا، على بعد آلاف الأميال من الأرجنتين. لا يطل الزمن بسرعة خاطفة مثل قفزة حصان. مثل تصفيق. مثل نفحة هواء. بل هو يتساقط بهدوء مثل رذاذ المطر. ها هنا ليس ثمة في كياني ما يحتاج إلى الحماية. أطيع إلحاحك المضحك، يا ليلى. أقول ذلك لنفسي في قطار المساء عائداً إلى البيت وسط حشد من الرجال الذين أنهكهم التعب. نحن نقانق محشوة. أسباط من البيض مغلفة بالنايلون. في البيت، تحت ماء الدوش، أعترف لنفسي بأنني بشعري الغزير لا أصلح لأن أكون بيضاً.

❊ ❊ ❊

يغزوني الحب من جديد. لهذا أستعيد ذكرى حبي الأول وأنا أستقل القطار. كنت في العشرين من العمر حين بدأت محاولاتي الأولى في الحب. أردت أن أذهب إلى السينما

Twitter: @ketab_n

برفقة فتاة وأن أسافر إلى مدينة أخرى برفقة فتاة أخرى. كنت أسعى في أثرهن فيتهربن مني. كنت أكتب رسائل إليهن. كنت أشتاق إليهن ولكن من دون أن أشعر بالحب. تعلمت تسلق الجبال كي أنساهن. ثم جاء الصيف والتقيت دفورا.

هناك كائنات خلقت بعضها لبعض من دون أن تلتقي أبداً. وهي تضطر أن تحب أشخاصاً آخرين كي تتغلب على الغياب. إنها كائنات حكيمة. في العشرين لم أكن ذقت طعم الوصال وقررت أن أنتظر. انتظرت الكائن المخلوق لي. بقيت أترقب وتعلمت التمعن في الوجوه في حشد كامل خلال ثوان. ثمة أساليب تربوية تعلم القراءة السريعة للكتب، أما أنا فقد تعلمت القراءة السريعة لوجوه الناس. كنت أغربل الحشد، أفككه، لم يكن يعلق أي وجه في شبكية عيني. كنت أدرك دوماً أنك لست هناك. أنت أيها الكائن المخلوق لي. لم تكن في ذهني صورة محددة لوجه الكائن الذي أنتظره. كلا. ليست العيون هي التي تحدد الكائن المنتظر. ولكنني أعرف ما الذي يحدده. كنت أنتظر كي أتعرف إلى الوجه القادم.

الانتظار. تلك كانت كلمتي في سن العشرين. ترقب لا نهائي لا يؤثر فيه القلق ولا يتولد عنه أمل. كنت أنتظر وحسب.

قابلت دفورا في الجبل. كنت أقف على الجدار العمودي

Twitter: @ketab_n

في توناناديي روزيس. كان الوقت منتصف النهار وقد وقع حبلي المخصص لشخصين في فئة المجموعات الكبيرة.

كانت دفورا تتسلق في الجهة المقابلة للجدار. لقد خرجت فجأة من الخلف ووجدت نفسها للحظات أمام الجدار حيث كان ثمة شخصان معلقان بحبل رفيع لا تزيد سماكته عن سنتيمتر واحد وكانا يبدوان من بعيد مثل خيطين.

كنت أقف مقابل الجبل أحاول أن أتسلق المرتفع الثاني. وحين هممت بنقل قدمي إلى موضع جديد هتفت دفورا ملقية التحية، أكثر ألقاً من شمس الظهيرة. مرحباً. جاءني صوتها من فوق كتفي وعرفتها على الفور. إنها هي. الكائن الذي اختاره القدر لي. عرفت ذلك فوراً، قبل أن ألحظ وجهها. لقد عرفتها من الصوت. صوتها كان الإشارة التي لطالما انتظرتها. نظرت إلى الأعلى ولم أبصر سوى السماء ونظرت إلى الأسفل ولم يكن هناك سوى الفراغ. ومن **الجهة المقابلة من القمة كررت هي هتافها بالتحية ورفعت إحدى ذراعيها فأدرت رأسي ورأيت قطعة من الحياة تقف مباشرة فوق هاوية من الصخور المخيفة.**

عمدت إلى حل الوشاح الذي كان يربط عنقي ولوحت به وأنا أمسك بالحبل المتدلي فوق المنحدر بيد واحدة دون أن أكترث إلى أن ذلك كان يسبب الألم لليد التي تمسك بالحبل وتؤدي مهمة يفترض أن تقوم بها اليدان معاً، ومن دون أن

Twitter: @ketab_n

أتمكن من رد التحية. ثم أفلتت الوشاح الأحمر فأخذ يتمايل وهو يسقط مثل ريش منتوف. ألقيت أنا أيضاً التحية فصرخ زميلي في التسلق بأن علي أن أسرع في العثور على نقطة ارتكاز غير أني عجزت عن قول وفعل أي شيء باستثناء إلقاء التحية خلال دقيقة كاملة. ثم رددت بأعلى صوتي اسم الفندق الجبلي الذي سنستريح فيه بعد التزلج. ثم غابت عن نظري.

بلغنا قمة الجبل في ساعتين بعد مسيرة تسلق منهكة. انحدرنا إلى الأسفل بسرعة، تماماً مثلما نفعل حين يكفهر الجو. مع أن الشمس كانت تسطع في سماء ما بعد الظهيرة. ووصلنا إلى الفندق الجبلي ولكنها لم تكن هناك. نزل صديقي إلى الوادي مرة أخرى. بقيت واقفاً هناك، ظهري إلى الباب منتظراً صوتها.

وأطلت أخيراً. ها هي دفورا. شعرت بدبيب النمل في دمي وبزئير الأسد في قلبي. كل دقة هي بمثابة مخلب يمتد لينقض علي. مدت يدها إلي. عرفت أنني لن أترك هذه اليد أبداً.

دفورا الأرجنتينية، جاءت في رحلة إلى أوروبا بعد أن نجحت في امتحانات التخرج. دفورا خفيفة الحركة ورشيقة وهي ترتدي الجزمة الجبلية المصنوعة من جلد بني مدبوغ جيداً. يداها حمراوان من أثر السلك الفولاذي في سكة التسلق. حاجباها بيضاوان من الملح الذي خلفه التعرق. ابتسامتها مصوبة على شعري الذي يتطاير مع ريح الأسرار، حتى حينما نكون في الداخل.

Twitter: @ketab_n

سأرافقك يا دفورا.

قالت: سنتسلق إلى قمة جبل توناناذي روزيس. أجل. غداً، عبر سكة التسلق التي تخترق منطقة المتفجرات في منجم كاستيليتو. مخلفات الحرب العالمية الأولى حيث مضى الجنود يفجرون الحجارة في كل سنتيمتر من الأرض، بمشقة عظيمة. هناك حفرة هائلة يبلغ عمقها مئات الأمتار ويحتاج المرء إلى مصباح ضوئي يعلقه على جبهته للنزول إليها على درجات، مثلما يفعل عمال المناجم.

أقوم بحركة توحي بأنني أحمل مصباحاً ضوئياً على جبهتي. مثل موسى، قالت وضحكت. نمنا في الكوخ الجبلي. استلقينا على الأرض، كل واحد في كيس نومه، جنباً إلى جنب. شبكنا أيدينا معاً وسرعان ما غرقنا في النوم.

صباح اليوم التالي ذهبنا إلى مغارة مظلمة، محفورة في الصخر بشكل أفقي. تحدثت إلى دفورا عن الحفارات التي تسحب محركاتها الهواء وتقذف بدلاً منه الغبار. حدثتها عن الفتيان الذين يجري إرسالهم إلى هناك فيتدحرجون في الوهاد ويصطدمون بالمتفجرات وتتطاير أجسادهم في الفضاء وتهوي إلى الأرض لتنقض عليها الطيور الجارحة وتنزع أعينهم. كانت دفورا تصغي إلي وتلهث وهي تصعد في أثري ممسكة بالطرف الآخر من الحبل. وكنا نقف لننظر من إحدى الفتحات التي حفرت في الجبل كي تفسح المجال لخروج

Twitter: @ketab_n

الغاز المنبعث من المتفجرات فنعاين الارتفاع الذي وصلنا إليه ونلتقط أنفاسنا.

خرجنا من النفق إلى السفح المستوي في الجهة الغربية التي كان الظل ما يزال يخيم عليها واستأنفنا التسلق كما لو كانت أقدامنا من البلاستيك. وصرنا نشرئب بأعناقنا إلى الأعلى بعد أن بقينا مطأطئي الرأس وقتاً طويلاً. تبعنا المنحدرات في الجبل بين بقايا الخنادق حيث كان الفتيان يحلمون، حين كان القرن العشرون في مستهله، بأن يكبروا مع القرن، مثلما رحت أحلم أن أكبر وأشيخ مع دفورا. تكون الحرب حين يحلم الشباب بأن يصيروا أجداداً.

ثمة حجارة اسودت من دخان مواقد النار التي كانت تقام هنا. تقع خطواتنا في أثر خطوات شبان تحولوا إلى أشجار وأسلاك شائكة. نعبر من فوق جبل توناتا من جديد ومن تحتنا يمتد نهر ترافينانسي الذي يختفي في الأعماق مستمداً الضوء من الأسفل. من بياض مسيله. تسألني دفورا عن الأسماء وتكررها كما لو كانت تشعر بمذاقها في فمها فكأن الأمر يتعلق بطعم الفواكه الطازجة الناضجة تواً. المرحلة الأخيرة من درب التسلق هي سلك فولاذي يصل إلى قاعدة الهرم الأخير.

على قمة جبل توناتا تقبلني دفورا وتسميني نوفيو، العريس. تغمرني سعادة عارمة. تسميني أيضاً باسهرتي ويعني

Twitter: @ketab_n

ذلك، في إحدى لغاتها، الشخص الذي هو من نصيب شخص آخر. تعجبني لعبة الكلمات هذه فأسميها بدوري نوفيا، العروس، وباسهرتيا، التي هي من نصيب شخص آخر. وننام في أكياس النوم، كل في كيسه، ولكن نجعل رأسينا متلاصقين. وفي منتصف الليل نطلق صرخات شبيهة بالعواء، أوييييييي، ومن ثم نستغرق في الضحك.

عرسنا الليلي يحدث أولاً في الأرجنتين.

من جديد أقف أمام باب ليلى حاملاً زجاجة تحت إبطي وأبحث عن كلمات أقولها لها بمجرد أن تطأ قدماي عتبة البيت. أخبرها في الحال أننا لا زلنا في شهر فبراير ومع هذا فإن شجرة المشمش بدأت تزهر ولهذا فإن البرد سوف يقضي على البراعم ولن تثمر الشجرة. على سبيل المزاح تسألني ما إذا كان صاحب البستان سيستاء إن لم يحصل على المشمش. لا. أقول. ولكني حزين لأنني لم أتمكن من تثقيف الشجرة بشكل مناسب. أنا بستاني ومع هذا لم أقدر على منع الشجرة من أن تزهر في الشتاء. أنا أرى نفسي مسؤولاً عن البستان ككل.

ـ ولكنك لست آدم. تقول وتصمت.

أناولها الزجاجة فتعيدها إلي مع فتاحة القناني ثم تمضي إلى فرن الغاز لتحرك الحساء. أنظر إليها من الخلف فتبدو رشيقة ويظهر عمودها الفقري مثل سوط منحن. تقفز ذراعاها

Twitter: @ketab_n

وكتفاها عن صدرها. يا لك من شجرة رائعة. أقول لها وأنا أحصرها بيني وبين الغاز. أنت ترى كل شيء أغصاناً. تقول، دون أن تعمد إلى إبعادي عن ظهرها.

ـ هل بدأت تعشق أيها البستاني؟

ـ لا. أنثر البذور وحسب.

ـ كيف هو ذلك؟

ـ رائع.

الحساء وحفنة من الكزبرة يعلنان قدوم الصيف. أحمل الكزبرة بين السبابة والإبهام كي أوقظ حواسي. تمنحني ليلى قبلة خاطفة، سريعة، وذات صوت، تفوح رائحة اللوز من ثيابها. أحمل بأصابعي قليلاً من البهار الأحمر وأنثره على الصحن وفي الوقت نفسه أسألها إن كان فارق السن بيننا يضايقها.

ـ هذا لا يهم. بالعكس. أنت توقظ الطفولة في جسدي. حين كنت أحتضن الكبار كانت السعادة تغمرني. وأنت، هل يزعجك هذا؟

ـ أرى في عيون الشباب الحزن الناتج عن قلة الحب. لا ألمح هذا الحزن في وجهك أبداً. حين أتكلم معك آخذ جانب الحذر كي لا أدوس على قدميك. ليس كما في الرقص. إنه مثل السير على صف من الحجارة نبتت بين شقوقها الأعشاب. ومع أن الأعشاب قوية إلا أنني أحرص

Twitter: @ketab_n

على ألا أتلفها فأخطو خطوات قصيرة. عند المسلمين يتركون أحذيتهم خارج البيت وهذا ما أفعله معك.

نأكل بهدوء. بصمت.

حين يكون الأكل أمامي تكون حركاتي أكثر بطأً. ليلى تأكل بإيقاع سريع وألاحظ أن سرعتها تضفي عليها نوعاً من البهاء. تتصاعد عندي الرغبة في أن ألمسها.

ثم أشعر أن صوتها بدأ يتهدج مثلما يحدث لصوت المرء قبل النوم. أحس أنها تسألني عن شيء ما وأن جزءاً مني فقط يرد عليها. هناك الجزء الآخر، الذي أمكث فيه، يصغي إلى **الصوت وهو يمضي من دون عائق. أبدأ بنغمة، ثم تأتي العبارات من مسافة بعيدة ولا أعرف ما الذي يمكنني فعله كي أوقفها.**

يقتلوننا جميعاً، نحن الذين ننتمي للتمرد

نقفز من مخبأ إلى آخر

تنبعث منا رائحة الخوف

في الشارع تتبع الكلاب الرائحة وتعدو خلفنا

أثناء الهرب نسعى إلى الانتقام

الأرجنتين تنتف من الوجود أحد أجيالها مثلما تفعل امرأة مجنونة بشعرها

هي تقتل أبناءها. تريد أن تتخلص منهم.

Twitter: @ketab_n

نحن آخر من تبقى.

أنا هنا منذ سنوات، غارق في عشق امرأة وها هي الحرب تأخذني. عند أحد الحواجز يجري تبادل إطلاق النار. يوقفوننا. نحن اثنان. هو يجرح شرطياً وفي الحال يخترق وابل رصاص رقبته ويموت على قدمي. تنفرج أسارير وجهه في محاولة أخيرة. وجهه يمنحني القوة. أشم رائحة أمعائه وهي تندلق وهذه الرائحة بالذات هي التي تدفعني إلى الأمام. ألف حول السيارة ثم أنطلق إلى الشارع. أطل على موقع الشرطيين. يتعثر سلاحهما فأقفز إليهما وأقف فوقهما. أطلق النار على الجسد الذي يسقط على الجسد الآخر الجريح. ألمح وجهه المذعور. لم يعد عدواً. لا أطلق النار عليه. أركض. هكذا تسير الأيام، متلاحقة. نسرق البنوك كي نجعل الأيام تجري. قبل أن أنتهي من كل هذا أمضي لكي أقتل عقيداً. أطلق عليه رصاصة واحدة وهو يسير على الرصيف وسط حشد من الناس يوم الأحد. حتى الآن لا أعرف إن كان مات أم أنه مازال على قيد الحياة. ثم أسافر إلى الجنوب حيث تتقلص المساحة ويكون من الحماقة الاختباء هناك. يبحثون عمن تبقى منا في أمكنة أخرى. أختبئ في نزل بحري وأتعلم أن أتكيف مع الطنين الأبدي للريح في جنوب الأطلنطي. الريح تمنح، تخفي، تصم، تخرس.

لم أكن على عجلة من أمري. ارتديت لباس بحار يشرب

Twitter: @ketab_n

وينتظر سفينة. يحمل مضيفي اسماً إيطالياً. لقد قدم أجداده من أوترانتو، وهي جزيرة صغيرة تحيط بها المياه من كل جانب. يسألني عن موعد رحيلي. هناك سفينة حيتان ذاهبة إلى جزر المالفيناس. أقبع في قعر كيس الحياة. ويمكن أن يتم تفريغها مني في أية لحظة. يريد مضيفي أن أرحل. إنه يريد أن ينقذني. سيساعدني بأن يتدبر لي عملاً على متن سفينة إيرلندية. قبل أن أصعد إلى السفينة أتخلص من سلاحي.

لأول مرة منذ سنوات أشعر أن ملابسي خفيفة وأن ذراعي مسترخيتان وأن الريح التي تهب يمكن لها أن تجرفني معها. أتسلق السلم دون أن أفكر بأي شيء. أنا آخر ورقة من الشجرة وها أنا أتساقط منها دون أن يلمسني أحد. لا أفكر بالفتاة التي عشقتها وجريت خلفها حتى صرت بسببها واحداً من أبناء بلدها. أعرف أنها ترقد الآن في أعماق البحر بعد أن رموها من طائرة هليكوبتر في عرض البحر مربوطة اليدين والقدمين. لقد عاشت من أجلي وماتت كي تمنح عينيها للأسماك.

أصعد إلى السفينة. وخلال يومين قبل الانطلاق أحمل فرشاة فولاذية كي أزيل الصدأ الناشئ من ملح البحر عن جسم السفينة. أحفظ أسماء الرجال العشرة وأدرك ولعهم بالثوم الطازج. أحدهم يقضمه كما لو كان تفاحاً.

عندما غادرنا الخليج كان الريح قوياً جداً يكسر الأمواج

Twitter: @ketab_n

ويبلل اللحى. أنام في سرير معلق بين عمودين في غرفة المؤن. أستلقي وأتأرجح إلى جانب المحرك. أبلغ الأربعين من العمر وأستغرق في نوم عميق لا يمكن حتى لزلزال أن يوقظني منه. يسمونني «الميت». لا أحد يستطيع أن ينام في هذا المكان سواي. لا أحد يعرف كم مضى علي من الوقت دون نوم. الرحلة عاصفة عنيدة والمحرك في أدنى طاقته، فقط لتقويم الانحراف. الصيد قليل. يتطلب الأمر بذل جهد مضاعف. الشبكة تثقل وتلتوي على بعضها فتحرم البحارة من النوم. بعد العاصفة يصير للبيرة مذاق طيب. يوم الأحد يصلون. إنهم كاثوليك. وجه القبطان يحمل أثار شظايا. يبدو أنهم خاضوا الحرب قبل أن يلجأوا إلى البحر. لقد قبلوا أن يأخذونني معهم لأن رائحة الحرب تفوح مني أيضاً. أقوم بالأعمال على السفينة كثمن للرحلة. مع أنهم ليسوا بحاجة إلي. اتفقنا على أن أحط رحالي على جزر المالفيناس. الكتاب الوحيد المتوفر في السفينة هو الإنجيل. أقرأه في ضوء مصباح خفيف على مقعد حديدي في عرض البحر. يعجبني داوود الذي يرمي العملاق بحجر واحد على جبهته ويزود العالم بكتاب فريد هو نشيد الأناشيد. يسألني بحار، جلده طافح بالبثور، إن كنت مؤمناً بالله فأرد بأنني لا أؤمن بالمؤلفين ولكني أحب قصصهم. ننظف الأسماك. نجمدها. نقضي شهراً ونصف الشهر في البحر.

أنزل في جزيرة سوليداد فأعجز عن المشي بشكل صحيح

Twitter: @ketab_n

في البداية. أشعر بالتيه إذ أسير ولا يكون البحر تحتي ولا يملأ الريح أذني بحيث أنسى كل شيء. أنا الآن على أرض إنكليزية. أذهب إلى فندق صغير يرتاده البحارة. صاحبته أرملة. كان زوجها يصطاد الحيتان. اسمها ماريا. ماريا ديل سول. أعمل طباخاً عندها وأنظف حديقتها وأهتم بأغنامها الممتلئة. في الليل نحدث صخباً كبيراً. ماريا قوية مثل سفينة تقاوم الريح. أنا أقف على قدمي وأخوض بالمجاديف. مساءً أشرب البيرة الداكنة مع البحارة ونضحك سويةً. ماريا تشتمهم ولكنها تشاطرهم الدعابات. أستبدل السمك بالجبنة. الجزيرة رطبة. ثمة برك من الماء تتعطن فيها النباتات والكربون. لا أشجار. الريح يقلعها كما لو كان بستانياً. هناك أعشاب قصيرة وطحالب تنمو على التلال الصغيرة. هذه أرض منحوتة نحتاً. شفاه الأغنام غليظة وقوية كي تتمكن من قضم الأعشاب القصيرة والقاسية في المراعي. الطيور التي تتغذى على الأسماك تحدد أهدافها وهي في الجو ثم تهوي من السماء لتنقض على ضحاياها في موج البحر. أنتظر. ليس ثمة ما أطلبه من الزمن.

هنا الحيوانات أكثر من الناس والنساء أكثر من الرجال. كل شيء أكثر عدداً من البشر. الأعوام تتلاحق. أنا منخرط في العمل. أمنح ماريا الأمان. لا أقترب من النقود. لا أفكر بها. أسمع أغنية أرجنتينية من الراديو. في اليوم التالي يبدأ الهجوم.

Twitter: @ketab_n

صوت ليلى يقاطعني. يرتطم بدماغي. أعرف أني تكلمت كثيراً. لهذا أعب كأساً لأنني عطشان ولكي أصمت.

الحق علي. تقول. جعلتك تتكلم كثيراً.

أنت خبيرة في ذلك. أقول.

نعم. يخرج صوتها. صوت آخر يلم الأشياء.

ما رأيك بالأشياء التي رويتها لك؟ أسألها.

أحبها. تقول. مهنتي هي أن أجعل الرجال يتكلمون. أن أخرج الأخبار من رؤوسهم. معك أصغيت من دون هدف. أصغيت وتعلمت أن أحب الحياة المكتوبة على وجهك.

تملكين الرجال في راحة يدك. أقول.

ولكني أحب راحة يدك أنت. تجيب.

لم أضع يدي على رأسك لأنك أذهلتني. تضحك.

لا تسحبي المزيد من الحكايات مني. إذا كنت عاجزاً عن الاحتفاظ بها لنفسي فالأفضل أن أرويها لك حين أكون صاحياً.

يجب أن أرحل غداً. تقول.

غداً؟ وماذا نعرف عن الغد؟ هنا ما يهم هو الآن.

أنهض وأحملها بين ذراعي وأمددها.

احضني أيها البستاني. احضني. هذا كل ما أريده منك. احضني ولا تسألني عن أي شيء.

Twitter: @ketab_n

لا أعرف أصلاً ما يمكنني أن أسألها.

عاملني كما كنت تعامل ماريا.

وأنت عامليني بوصفك ليلى. ليس ثمة قوة يمكن أن تفصلنا الآن.

* * *

ثم تأتي الأيام من دونها. يأتي سليم إلى الحديقة من أجل أزهار الميموزا ولكي يتحدث قليلاً عن بلده حيث يمشي الناس حفاة ولهذا يتبادلون الأحاديث بحرية. حين يرتدي المرء الحذاء يتوقف عن الكلام. هو يرانا على هذه الحال. إذا لم نقف على الأرض بأقدام عارية، مثل الأشجار، نصبح معزولين. يرن لسانه داخل فمه كما لو كان داخل علبة من الفضة.

هذا صحيح. إنها الحقيقة بعينها. أقول. تاريخنا كله عبارة عن حذاء يفصلنا عن الأرض. الحذاء هو البيت، السيارة، الكتاب. هذه الخاطرة تجعلني أبتسم. ما الذي تهذي به أيها البستاني؟ أسأله أين يسكن، وفي ذهني أن أجد له مأوى عندي. يقول أنه يقيم في بيت مهجور، من دون نوافذ وأبواب. وهو يحب ذلك. يقول: هنا، عندكم، تصنعون البيوت من ماء الأرض. تأخذون الماء من بئر أو نبع أو نهر. هناك، عندنا، نصنع البيوت من ماء السماء. نجمعه إلى أن يصير عندنا ما يكفي منه فنشرع في بناء البيت. بيوتنا مصنوعة

Twitter: @ketab_n

من المطر. إنها غيوم أكثر منها بيوتاً. ويضحك سليم. يضحك من بيوت العالم. أشعر بأني مفصول عن ليلى وليس عن الأرض. فأنا مازلت أقف عليها، منحني الظهر، أغرس يدي في تربتها.

يريد سليم أن يدفع. إنه يكسب نقوداً الآن. دع عنك. لولاك لكانت الزهور هنا، في هذه الحديقة المسورة. أنت مندوب الريح، تنثر الزهور في الأرجاء، تضعها على صدور النساء. آه لو كان في وسعي أن أطلب عمولة من الريح. اشتر لنا مشروباً ذات يوم حين لن يبقى ثمة المزيد من الزهور لقطافها. يأتي معي لتناول الطعام في فرصة الغداء. سوف يودعني. سيذهب إلى صقلية من أجل قطاف البندورة ذات الحبات الصغيرة، التشيليونجينو. أقول له أنه يجري وراء الأرض. أشعر بأرضك، يقول مبتسماً، تتبدل بتبدل الفصول فيما أرضي ثابتة لا تتزحزح. على شعره الأشيب هناك حبات من الغبار الأصفر. لقد كشفت زهرة الميموزا عن صداقتها له. في يده يحمل كأساً من النبيذ الأحمر وأظافره بيض. باختصار، سليم هو رفيق الألوان. أقول لنفسي أن هذا هو البهاء بعينه. ثم يغمس الخبز في النبيذ ويقول: لقد حدثت لقاءات طيبة بعد مغادرتي المحيط. فالبطاطا الأميركية التقت بزيت الزيتون ووصلت البندورة إلى أحضان الذرة.

يأكل بشهية. أتخيل ظهره الداكن على خلفية من اللونين

Twitter: @ketab_n

الأخضر والأحمر لشتلات البندورة، كما أتخيل الشمس التي ستستقر على كتفيه لعشر ساعات وأفكر بأجره الذي سيعوضه عن ذلك. وفي الأخير أقول له أن الجلوس معه على طاولة واحدة يشرفني.

أستقل قطار المساء بعد عصر مثقل بالشراب. في البيت أقضم الثوم الطازج مع البندورة وتتوهج بيضة مسلوقة ومقشرة في راحة يدي للحظة. قبل أن يقلب النوم جفني أفكر بليلى. لا يكاد الواحد يتناول قليلاً من الملح مع أحدهم حتى يجد نفسه وقد غرق في حبه. قبل أن يحدث ذلك كان يجب عليهما أن يتناولا وعاء كاملاً من الملح.

أقضي أياماً معها كما كنت أفعل في الأرجنتين. أعيش يوماً بيوم من دون أن أفكر بالغد. في حضنها أتذكر رائحة فتيات الغابة في جزيرة سوليداد. لا أعرف إن كن مازلن يتحدثن عني بعد تلك السنين التي قضيتها هناك. لم يعد ثمة جنود في الحكومة ولكن القوانين تبعث على الضحك. ربما نسوا أن يغيروها بسبب الإهمال.

من يعرف إن كانت ماريا دفعت ثمناً لخصيتي أو أنها اعتقدت أنه يكفي أن تصب اللعنة علي. لا يأتيني النوم. أنهض لأهيئ فنجاناً من القهوة وأنظر من النافذة. المسافة إلى البحر لا تتخطى بضع كيلومترات. لا أكثر. كان الوقت ليلاً

Twitter: @ketab_n

أيضاً حينما غادرت جزيرة ماريا وبدأت رحلة العودة على متن سفينة صوب خطوط العرض. لم آخذ شيئاً معي. فقط النقود التي حصلت عليها مقابل الكهرمان الرمادي، وقد أخفيتها تحت روث الغنم كي أبدد رائحة الطحالب عنها. لم نكد نصطدم بأول موجة حتى تقيأت. كان هذا تحية الوداع. شرعنا نبحر صوب خط الاستواء وكلما اقتربنا منه قل الظل عن الجسد في منتصف النهار. أتعلق بخرافة تقول: من لا ظل له لا ماض له. لأيام متتالية أقف تحت الشمس كي أراها وهي تغيب. نبدأ من الخط الذي يتساوى فيه الليل والنهار. يحتفل البحارة حين نعبر النقطة صفر من الخط. في الليل نقيم حفلة على متن السفينة. يدفعنا البحر على أمواجه قدماً إلى الأمام. تسير السفينة بثقة وهي تنحدر من الأعالي. تنبعث رائحة الخمر من عرق البحارة. أنا مجرد راكب وحسب وأنشد البقاء لوحدي بعيداً عن الآخرين. غير أني هشمت أنف أحدهم حين حاول أن يعتدي على عامل المطبخ، وهو صبي كريولي من جزر الأنتيل. كان هذا تصرفاً خاطئاً مني. يجب أن يذهب الناس إلى الجحيم إذا كان هذا ما يريدونه. هناك أماكن ليست مناسبة للصبيان الصغار. في الليل يعمد الرجال، البعيدون عن زوجاتهم، إلى ممارسة الفعل في ما بينهم. مر الولد راكضاً بالقرب مني فلحقه الرجل وأمسك به. لم يكن أحد سواي بالقرب منهما. تدخلت. استل الرجل سكيناً. أعرف ما أقوم به في هذه الحالة. أمسكت به وطرحته

Twitter: @ketab_n

أرضاً ووضعت ذراعي على وجهه فخارت قواه وأستسلم على الفور. هكذا قضيت بقية الرحلة أنام في النهار وأسهر في الليل لئلا أنهض صباحاً فأرى نفسي مذبوحاً. في اليوم التالي طلبت إليه أن يسترجع السكين من الكابتن الذي شتمني طالباً مني ألا أتدخل في ما لا يعنيني.

أقف بالقرب من نافذة على الطرف الآخر من العالم. ومع هذا يكفي أن أعرف أن البحر يحيط بهذا المستطيل المظلم حتى يهاجمني من جديد الأرق الذي لازمني طوال رحلة الأطلنطي.

في الليالي الأولى بقيت أسهر على دكة السفينة كي أرى بياض القمر ينعكس على صفحة الماء. إذا كان البحار يريد قتلي فلابد أن ينتظر الليالي التي لا يطلع فيها القمر. يوماً بعد يوم أراقب وجهه الذي أنهكه الجوع وأنفه المصبوغ باللون الأحمر الناشئ من تقرح الشعيرات الدموية فيه. أسعى في أن اجعله يدرك أنني يقظ وأنني أخاف منه. وهذا أقل قدر ممكن من التعويض، من الإرضاء. وهو ما يمكن أن يكون كافياً في بعض الأحيان.

يريد الصبي أن يبقى معي عرفاناً بما فعلت من أجله. في الليل يطرق باب الكابينة جالباً لي قطعة من الكعك أو كوباً من القهوة المعطرة. هناك رجال يفقدون الإحساس بالخجل من أجل فتيان. هذا ما يمكنني فهمه. ولكن ليس العكس.

Twitter: @ketab_n

يخبرني أن الطباخ باعه للبحار في الليلة التي عبرنا فيها خط الاستواء. ويقول أن أحداً لم يدافع عنه منذ أن ولد. وأنه مدين لي بكل شيء، بما في ذلك الحب. شعرت آنذاك بهواء الشمال. هو ينتمي إلى الجنوب الذي ارتبطت به بوثاق الحب والحرب والهجران خلال عشرين سنة. هذا الجنوب لم يعد موجوداً بالنسبة لي. أقول له أن لطفه هو أكثر مما أستحق وأن الحب لا ينبع من الشكر المتبادل. يسألني إن كان في وسعه أن يبقى معي حينما ننزل في إنكلترا. لا أعرف كيف سأعيش. لا أعرف شيئاً عن الشمال وكيف يمكن تدبر الأحوال. ولكن إن كان البحر أضجره ففي وسعه أن يرافقني. يريد أن يسمع كلمة نعم.

ـ نعم.

في هذه اللحظة يخطر لي أننا، ليلى وأنا، لم نتبادل كلمتي نعم أو لا حتى الآن. من دون نعم ولا ليس ثمة ثنائي. بعد حوالي مئة خط عرض ننزل إلى عالم مقلوب على رأسه. نطأ البر في لندن وسرعان ما نرتب أمورنا. أجد عملاً في محل للنجارة، وهو يجد عملاً ليلياً في حانة. عندما يرجع أكون قد نمت. وفي الصباح ينهض باكراً لكي يهيئ لي القهوة ونلقي تحية الصباح على العالم معاً. في أيام الأحد نزور الحدائق ونستمع إلى موسيقى الجنوب. يسألني: لو كنت أنا امرأة هل كنت ستتزوجني؟

Twitter: @ketab_n

ذات مساء لا يرجع. لقد وجد حانة أفضل. صاحب الحانة عرض عليه أن يعيش معه. أقول له: الآن حان الوقت لكي أسافر إلى إيطاليا لتسوية بعض الأمور. في المساء الذي أسافر فيه يرافقني إلى محطة القطار. ينزع قليلاً من **نثارة** الخشب من شعري، لآخر مرة. في هذه اللحظة أشعر بأنني أحبه وأنني أردت أن أحصل على هذا الحب في اللحظة التي تركت فيها **نثارة** الخشب على شعري. ضحكت من نفسي، أنا الذي بقيت على سطح الأشياء ولم أدرك قط تورطي في حبه طوال الوقت. بإصبعه يرسم صليباً على جبيني ويقول لي: اعثر على الحب.

ـ وأنت يجب أن تطلب من الآخرين أن يحترموك. أنت فتى صادق ومستقيم، عيناك السوداوان لا تعرفان أن تخفيا الأسرار. نودع بعضنا بعضاً ثم يختفي كل واحد منا في زحمة من الوجوه الغريبة التي تبتلع كل الوداعات.

في تلك اللحظة يخطر لي أنه ينبغي أن أتوقف عن هجران الناس. أمد نظري عبر النافذة التي تكتسي الضباب من أنفاسي وأضع جبهتي، تماماً حيث كان رسم إشارة الصليب بإصبعه، على الزجاج، وفي نقطة قصية من العالم، على مسافة سنة، أصرخ: ليلة هانئة.

تمضي الأيام من دون ليلى. أقرأ رسالة جاءتني من الأرجنتين. صديق خرج لتوه من السجن. العالم، عالم

Twitter: @ketab_n

السنوات التي قضيتها في الجنوب، يترنح أمامي. كتب: يجب أن أتعلم السير إلى الأمام. ينبغي أن أترك العنان لقدميّ كي يأخذانني بعيداً. في جهة من العالم تمضي الأمور على ما يرام. وفي الجهة الأخرى تطل سنوات جديدة من المشاكل. أنتهي من قراءة الرسالة على طاولة الطعام. أطويها وأغمض عيني للحظة. ماذا يفعل الرجل الآن؟ ينام؟ صوت ميمو يجعلني أفتح عيني. أهلاً بعودتك. لا، لا، لا أنام. أفكر بهذه الرسالة. أناوله إياها. يجلس. خلفه هناك سيدة. الآن فقط رأيتها. أعتذر. أنهض. أعرف بنفسي. تبتسم وتغلف صوتها بشيء من التعاطف. نجلس. هو يقرأ. أشرح للسيدة عن الرسالة. صديق من أميركا الجنوبية خرج لتوه من السجن. أخبار طيبة. تقول. يعيد ميمو الرسالة إلي. يسألني عن المغزى من وضع الأحجار في الحقل. ما فائدة طريق محجر ضائع وسط الأشجار؟ هي ليست للسير فوقها. أقول. الحجارة تمتص حرارة الشمس في النهار وتطرحها في الليل. في الصيف تحمي الحرارة أشجار الكرم من قطرات الندى وتمنعها من العطن.

ـ من أين تعلمت هذا؟ يسألني.

ـ من الأرجنتين التي قضيت فيها شبابي، من الإيطاليين الكبار في السن في تلك الفترة. أولئك الذين استطاعوا أن يخزنوا النبيذ في الحدائق الخلفية في بوينس آيريس. الآن لم

Twitter: @ketab_n

يبق ثمة إيطاليون كبار في السن. ولا حتى **يافعون**. الآن هناك أرجنتينيون فقط. رجل عجوز، جد من دون أحفاد، علمني ذلك. كان استقر في الأرجنتين منذ هاجر إليها بعد أن قطعوا غابته الصغيرة من أشجار السنديان في آبينينا لكي يمدوا فيها خطوط سكة الحديد. هرب من عالم يحتفلون فيه بإزالة مئات السنين من الجبال ليضعوها تحت عجلات القطارات. كان يسمع الأشجار المبتورة وهي تصرخ إلى النجوم كل ليلة مطالبة بالانتقام. وحين تم تفجير قاطرة وجهت التهمة للفوضويين. هرب من ذلك العالم. أخذ معه جرناً صغيراً مصنوعاً من الرخام ومدقة من خشب الزان كي يطحن البهارات. كما أنه أخذ قليلاً من بذور الريحان وعدداً من شتلات الأربالوتشي كي يحاول أن يزرعها في حي باليرمو ببوينس آيريس التي يسود فيها المناخ الرطب. تصغي المرأة بانتباه. بالنسبة لها هذه حكايات آسرة. ميمو بدوره ليس لديه أي اعتراض في أن يلوذ بالصمت. ولهذا أواصل الحديث. علمني الجد طريقة ذبح الخنزير ومن ثم تقطيع اللحم إلى شرائح صغيرة وتمليحها. ثم كيفية إضافة الثوم والفلفل والنبيذ إن تطلب الأمر. ما أن يذبح الحيوان حتى يعمد إلى جمع الدم الحار في وعاء ثم يغليه حتى يتحول إلى مادة إسفنجية فيتناولها كي يحصل على طاقة تعينه في الأشغال التي يقوم بها أثناء النهار. تشعر .المرأة بالتقزز. أنا أيضاً لم أتمالك نفسي ولكنني لم أقل لها ذلك. لا أحد يتحمل ذلك الآن. ولكن إذا

Twitter: @ketab_n

شئت صحبة الكبار في السن عليك أن تتقبل ما دأبوا على فعله مذ كانوا صغاراً. وعليك على الأقل أن تؤدي رقصة في يوم حفلة إن عجزت عن أن تغمس خبزك في حسائهم.

لا أقول ذلك للسيدة بل ألوذ بالصمت. تنظر إلى جبهتي وتقول: وماذا بعد؟ أتذكر الجد وهو يخبرني عن الهنديات الحمر وهن يخرجن عاريات الصدر ليقفن أمام الريح كي يتوقف. أتذكر الجد وهو يقطف أول زهرة من زهور البنفسج التي تتفتح بعد انقضاء الشتاء ويمسد بها جفنيه. ثم أتوقف عن الكلام. ثم يحدثني ميمو عن نفسه. هو رجع من رحلة على طول أحد خطوط التماس في الحرب بين الصرب والكروات. في قرية صغيرة على الجبهة تمكن إيطاليان أن يقيما، لا أحد يعرف كيف، فرناً للخبز مجهزاً بكل شيء. البعض من مواطنينا قادرون على التكيف مع كل الظروف. يقول. التقيت بكرواتي عجوز كان عاش فترة طويلة في النمسا. كان من ذلك الصنف الذي امتلأ به الزمن الغابر. واحد من أولئك الذين يستطيعون أن يصلحوا آلة معطلة بأن يعمدوا إلى صنع الأجزاء الناقصة بأنفسهم. يستطيعون صنع الجبن **وإعمار** البيوت وتهيئة النبيذ.

المرأة غارقة في الصمت. تأخذ رأسها بين يديها، كعلامة على الثناء، بأنها تمنح اهتمامها واستغراقها ووقتها. ألقي عليها نظرة فيما ميمو يقول: ثمانية أبناء، الولد الأصغر تلقى

Twitter: @ketab_n

رصاصة في الرأس أمام المنزل. أخبر الرجل العجوز أن في وسع الحرب أن تكون جذابة. الديون، السرقات، القروض، العقود. تستطيع الحرب أن تحرق كل الوثائق. هي للبعض بمثابة غفران وللبعض الآخر فرصة للانتقام. ثم تحترق البيوت مع الأولاد الذين بداخلها. ويخسر الجميع.

استمرت الحرب في تلك الأصقاع أربع سنوات. ومازالت حقول الكرم مليئة بالألغام. في الصيف تتفتق عناقيد العنب فتصبح مثل أضرع الأبقار غير المحلوبة. وتحصل الزنابير على عصير مجاني. في الشتاء يتمنى المرء لو أن الثلج يغطي الكرم ثم يدعو أن يحدث الصقيع فيصير الثلج صلباً فيقدر أن يمشي عليه كي يقوم بالتشذيب. الحقول المحيطة مغلقة والقنابل تنتظر المارة. كيف يكبر الأولاد في مكان فيه مساحات واسعة ممنوعة. تسأل المرأة من دون أن تنتظر إجابة. يترك ميمو لحظة صمت تعقب صوت المرأة، كنوع من التجاوب، ثم يجيب بأن النساء يربطن أولادهن حين يضطررن إلى الخروج وتركهم وحيدين في البيوت.

تعرف المرأة أشياء عني وعن الأرجنتين. أشياء كان ميمو أخبرها بها. إنها شابة ولكنها ليست مراهقة وتريد أن تعرف الجواب عن سؤال: هل تعتقد أنك صالح؟ إنها صفة عملية ويسرني أن يصدر هذا عنها. غير أن هذا لا يعنيني كثيراً. «تنخرط في الحرب هرباً من الشعور بالعار في أن تبقى

Twitter: @ketab_n

خارجها. ثم يسيطر عليك الغم ويدفعك أكثر فأكثر إلى القيام بدور المحارب الغاضب». بودي أن أعرف المزيد عن كل ذلك. تقول. أستطيع التحدث عن هذا قليلاً جداً من دون أن أعطي إجابات مقنعة على الأسئلة. أنا أحس أنها لاتهمني. ولكن إذا جاء أحدهم في ما بعد وأراد أن يعرفها يمكنه البحث عنها، سواء بدافع الفضول أو التعاطف. أنا لا أملك أياً منهما.

ـ لا أعرف لماذا لا تريد أن تعرف الأجوبة عن تاريخك. يلوح لي أن إنكار تاريخ كبير كتاريخك هو نوع من الضياع.

ـ أنكر لأن مجرد البحث عن أجوبة عن الحياة التي ضاعت هو نوع من الذريعة. إنه يخفف من هول الصدمة. وأنا لا أميل إلى تخفيف الأمر.

ـ هذا محزن. أعرف شخصاً آخر كان حارب معكم. هو لا يتكلم ولا يجيب عن الأسئلة. أنتم تحتفظون بالأجوبة لأنفسكم.

ـ هذا صحيح، أقول ذلك لكي لا تشعر بأنها غريبة فيما ميمو يستهجن نبرة العتاب في صوتها. صحيح، لا نعرف الوقوف أمام سؤال. نحن آخر ما تبقى من السؤال. أقول نحن من دون أن أعرف ما تعنيه هذه الكلمة. أبلع ريقي وأخفض صوتي. يتدخل ميمو لمساعدتي ويقول أنني قدمت شرحاً بسيطاً. لا يا ميمو. هذا لا يرضيها. هذا أمر يخصني وحدي.

Twitter: @ketab_n

ثم أقول لها أنني مدين لها بجواب شاف وأرفع الكأس إلى فمي وأرتشفه ببطء وأجفف فمي وهذا يعني أن الحديث بالنسبة لي قد انتهى. ننهض ونتصافح.

يترتب علي أن أقوم بعد الظهر برش جذوع الأشجار بالكلس. أقول لميمو أن ثمة قمر في هذه الليلة وإذا أراد أن ينظر من النافذة فسيرى غابة من النجوم.

أقضي بضعة أيام في العمل في بستان آخر. ينبغي أن أزيل الأحجار، الثقيلة والقاسية، التي رصف بها الممشى الصغير في البستان وأعيد الأرض إلى سابق عهدها من الضوء والحياة فتكون قابلة للتشجير. ليس أكثر من مائة متر، غير أن الترصيف متماسك والأحجار محفورة في أرضية من الإسمنت والأسلاك المعدنية. عليّ أن أحطم كل شيء بمطرقة حديدية خبطة خبطة. يتصبب العرق مني. أفرك مفاصلي وأصابعي. يطلع الملح من مسامات جلدي. أستريح لتناول التفاح والجبن المالح.

تحت طبقة الحجارة تلوح الأرض منهوكة قتلها الظلام وأحرقها الكلس. إنها بحاجة إلى الضوء والهواء. كما أنها بحاجة إلى سماد بلدي كي يتم تعديل الملوحة فيها.

هكذا أقضي أياماً وأنا أهوي بالمطرقة ومع كل طرقة يتناثر التراب من المقبض. حينما أعثر على إيقاع منتظم أفلح في مراقبة نفسي من خارج جسمي أيضاً. من الداخل أحس

Twitter: @ketab_n

بالضربات وأسمع اللهاث. أسحب الهواء إلى داخلي حين أرفع المطرقة وأزفره خارجاً حين أهوي بها على الحجارة. المنفاخ الصغير داخل جسمي يقسم الدورة الهوائية إلى خمس حركات: اثنتان لرفع المطرقة، واحدة أثناء توقف المطرقة في الهواء، واثنتان للنزول بالمطرقة إلى الأرض. من خارج الجسم أرى رجلاً في الخمسين من العمر يطرق بوابة الأرض كي يفتحها، كي يشق فجوة في صدرها المشدود.

أجمع قطع الحديد الملتصقة بالإسمنت في زاوية ثم أحملها إلى شاحنة سرعان ما تمضي إلى البعيد. وأخيراً أقفُ على الأرض العارية. لونها رمادي، أعزقها ثم أخلط معها روث الأحصنة **ونثارات** شجرة الكستناء وأمددها تحت شمس نهاية الشتاء التي تحتضنها وتخمّرها.

أقضي أياماً عديدة على هذا النحو. في المساء أفرم حبات البندورة والبصل ثم أسحقها وأفرغها في مصفاة على المعكرونة وأقشر حبات من الثوم وأنا أقف أمام كتاب روسي. هذا يخفف وزن جسمي. هذا ما يجب أن تفعله الكتب. أن تحمل هي الإنسان لا أن تجعل الإنسان يحملها. أن تخفف عبء الأيام عن كاهله لا أن تزيد إلى أعباءه ثقل صفحاتها.

عندما يشرف المساء على نهايته تكون ليلى نفحة في أنفاسي المعبأة برائحة الثوم قبل أن تستسلم جفناي للنوم.

Twitter: @ketab_n

أفكر أيضاً بسليم الذي يصلي في نهاية كل يوم. هناك أشكال من التواضع تزيد من عظمة الإنسان.

أعود إلى العمل في بستان ميمو. هناك أجد ورقة مكتوبة منه. لقد جاءت سيدة وسألت عني. وهو ألح أن تجلس وتتناول الأكل كي يتملص من إعطاءها عنواني. هي ليلى. أفكر في الاتصال بها مساء. غير أنها تطل فجأة في منتصف النهار، غاضبة قليلاً، فرحة قليلاً، وقد جمعت شعرها، المغسول تواً، والذي ربما كان مبلولاً بعد، فوق رأسها. تنفث الكلمات في وجهي. يدغدغني طرفا عيني.

ـ أتضحك؟ تحتد ثم تبتسم.

لا تريد أن تجلس فأضطر إلى الوقوف أنا أيضاً. يومان وهي تبحث عني. هي غاضبة وسعيدة في آن. تريد أن ترفسني وأن تقبلني في نفس الوقت. تتناول قطعة خبز وتفتتها قبل أن تلتهمها. الأمر ليس بيدي. أقول. سترى ما سأفعله بيدك وببقية جسمك حين ينقضي الشتاء. تجرني من يدي ثم تبلع ريقها وتتركني وتستدير كي تذهب وتطلب مني أن أذهب إليها بعد انتهاء العمل من دون أن أمر ببيتي. ثم تخرج فأجلس وأشعر بانقباض في بطني. أعرف أن جسدي يحب هذه المرأة، إنه يوخزني وينادي باسمها.

يجب أن أنفذ قوانينها وأتبع خطواتها. أمرر راحة يدي على وجهي وأخاطب جسدي: لسنا متساويين، أنت هيكل

Twitter: @ketab_n

نحيف متهالك وأنا آخر يسكنك ولهذا فأنا بطيء الحركة. أنت تعاند مثل حمار بيلام في وجه الملاك الأول. أما أنا فبخلاف بيلام لست سيدك ولا أرفع العصا في وجهك لكي أحثك على المضي إلى الأمام. يتوجب علي أن أتصرف معك على هذا الوجه من الرقة لأنك تتحمل أعباء كثيرة ولأن الفظاظة معك ليست ذات نفع فأنت صبور على الدوام.

أرفع يدي عن وجهي وأضعها على عنقي كي أعبر عن الاتفاق بيننا. جسدي يحب ليلى فإذن أنا أحبها أيضاً. هكذا تهدأ الأعصاب التي كانت توترت من بعد قدومها ومن سماع صوتها ومن رحيلها المفاجئ المصحوب بالعطر. أحياناً أضطر للقيام بعقد اتفاقية مع نفسي كي أتمكن من السير إلى الأمام بشكل صحيح.

في البيت، عند ليلى، ثمة سعادة طافحة. حتى إنها ارتدت ثوباً مطرزاً بالزهور. أي نوع من السماد استعملت كي تتألق هذه الزهور على هذا النحو؟ أسألها وأنا أمرر يدي على زهرة مرسومة على فستانها.

ـ أنت بستاني، ينبغي أن تحزر.

ـ إذن علي أن أعرف ماذا يوجد تحتها وأشمها.

وأمرر أصابعي تحت الفستان، على جلدها.

ـ ألهذا ترتدين فستاناً مطرزاً بالزهور؟ كي تصطادي النحل والبستاني؟

Twitter: @ketab_n

أسحب يدي وأنفخ على أصابعي كما لو كانت تحترق. ونبدأ بالمزاح والتسلية قبل أن يحين وقت العناق الحميم.

حين ينغمس الشباب في الحب تظهر على وجوههم إمارات الجدّ والصرامة. أما الكبار فإنهم يأخذون الأمر على محمل اللعب ويطلقون العنان لضحكاتهم لكي يصير الدم حاراً. الضحك يثيرهم.

الماء يغلي ولكننا نتمهل قبل أن نفرغ الباستا. حين نعود إلى المطبخ نكتشف أنه لم يبق سوى القليل من الماء في قعر الوعاء. هكذا هو الماء في البحر الميت. تقول. نحن جائعان. نقلي ست بيضات. ثم نجلس وجهاً لوجه ونأكل من الصحن نفسه. هي تغمس لب الخبز وأنا أطرافه. هي تلتهم الأكل بسرعة أما أنا فلا أعرف كيف أبتلع اللقمة بمثل رشاقتها.

أرفع كأس النبيذ الذي سكبته لنا. إنه نبيذ فرنسي من النوع الذي يجعل الفم ينحني إجلالاً. فمي لا يعرف حركات البذخ هذه. ولكن فمها معتاد على ذلك. وفي حين تعمد إلى ارتشاف جرعات صغيرة وتحتفظ بالنبيذ في فمها تمرره يميناً وشمالاً أشرق نصف القنينة دفعة واحدة.

هي تحتفظ بالجرعة في فمها لفترة طويلة بحيث يترتب عليها أن تلفظها في نهاية الأمر. تنفجر ضاحكة وهي تبلع ما في فمها من نبيذ فيدخل في مجرى التنفس فتلفظه وعلى وجهها إمارات الفزع وتضربني على ذراعي بقبضة يدها ثم

Twitter: @ketab_n

تسعل ويتطاير من فمها رذاذ أحمر وهي غاضبة ككتلة من النار.

البيض المقلي كان وجبة غدائي حين كنت مهاجراً في مقتبل العمر. وقد اكتشفت أن بوسعي أن أهيئ الطعام: البيض المقلي فقط.

نضع الوعاء في خزانة الصحون من دون أن نغسله لأننا نظفناه على أكمل وجه بقطع الخبز.

تكلمي يا ليلى ولا تجبرينني على سرد الحكايات.

ـ كنت طبيبة أسنان. انا خفيفة اليد وفي وسعي أن أعرف حال السن من دون الحاجة إلى صورة شعاعية. أضع السن بين فكي الملقط وأعرف في أي اتجاه ينبغي أن أحركه كي أنزعه بكل سهولة.

أنظر إلى يدها. ألحظ فيها الرقة والقوة معاً. تكمن القوة في ظاهر يدها أكثر من باطنها. أفهم الأيدي أكثر من الوجوه.

لم تعد طبيبة أسنان. ذات يوم أحدثت جرحاً في فك رجل بعد أن سحبت سنه الخلفي. امتلأ فم الرجل بالدم في غضون ثانيتين. تمكنت من سد الجرح وإيقاف النزيف. ثم تركت المهنة. كان الأمر مجرد حادث عابر، وقد تم إصلاحه، ومع هذا فقد تركت المهنة. أسألها عما إذا كان فمي سليماً ومعافى. نعم. فمك مليء بالهواء. إنه قبو مظلم. ثمة يعم السكون. يبدو اللسان كالفلين والأسنان كحبات رمل

Twitter: @ketab_n

استهلكت من أثر المضغ وتناول الخبز. هناك أنواع كثيرة من الأفواه. تقول. هناك أفواه كالمجاري تقذف الشتائم واللعاب. وثمة أفواه كالحيوانات الأليفة التي تحتضن صغارها. وهناك أفواه أشبه بالرسائل المختومة، المغلقة التي لا ترسل أبداً.

تتكلم من دون أن تحرك يديها. شفتاها فقط تتحركان. تسألني عما إذا كنت أرتدي القميص حين أعمل في الصيف أيضاً لأن أثر الشمس على الجسم يتوقف عند منتهى الرقبة. نعم. أقول. يصير جلد العامل داكناً في الوجه والرقبة واليدين. بقية الجسم في عطلة صيفية. تضحك. لا أعرف لم. على شفتها العليا بقايا بيض أمسحها بإبهامي لكنها تلعق شفتها كي نبدأ من جديد. تلتقي أقدامنا تحت الطاولة. نحن عاشقان نتواصل بالأرجل بدلاً من الأيدي. نحتضن بعضنا بعضاً من جديد. أنا متوتر بعض الشيء وهي صامتة كالكريستال. لاشيء يظلل قسماتها الناعمة التي يبدو وكأن الريح الشمالية مرت عليها فنظفتها من كل شيء. النساء اللواتي يمارسن المهنة يملكن ذخيرة واسعة وهن حين يعشقن يتجنبنها ويحلقن من حولها من دون الوقوع فيها. إنهن حذرات من أن تجرفهن الرغبة. هن يخترعن الحب اختراعا وسط كومة من المحاذير والممنوعات. الحب بين يدي ليلى هو الشيء الأكثر عذرية وهي تنشد هذا الحب بأن تلفظ اسمي، تناديني خارج البرية الشاسعة لجسدها. في آخر الأمر تنهال علي بالقبلات

Twitter: @ketab_n

فيتجمع الدم في جسدي وهي تستحوذ على ما تبقى في من طاقة وتقول أنها تشعر بسعادة أكبر حين أكون منهكاً. وأدرك من جديد أنني أحب هذه المرأة وأن هذا الحب ينبغي أن يكون الأخير في حياتي.

* * *

إنه ليل ولازالت أقدامنا متشابكة فيما انفصل جسمانا بعضهما عن بعض. أفكر بجزيرة أمشي فيها حافي القدمين. جزيرة من بعد ليلى، حيث يكون الوقت حان لترك البلاد. من بعدها أحتاج إلى جزيرة. من بعد أن تكون قدماي تحررتا من قدميها.

ـ بم تفكر. تسألني لأنها تريد أن تسمعني وأنا أتكلم.

ـ أفكر بجزيرة، بأمواج تضرب الصخور، بريح تجعل الأشجار تنمو وتكبر، ببئر مليئة بالماء وبساقية تقود ماء المطر إلى البحر. أفكر بالصوت اللاهث لجرارة الدلو وبهدير الأصوات الآتية من أعماق البئر وبالأمان الذي يشعر به المرء حين يجد أمامه ماء وفيراً. ثم أخترع أشياء كي أخبرها بم أفكر.

ـ لديك خيال خصب. تقول.

ـ نعم إنه خيال رجل يحلق ذقنه من دون مرآة.

تصغي إلي وهي تكاد تلتصق بأذني التي تملؤها أنفاسها بالجزر البحرية. ولكنني لا أخبرها أن الجزيرة هي المكان

Twitter: @ketab_n

الذي سأقضي فيه أيامي من بعدها. يمضي المرء إلى لقاء الحب ببطاقة سفر ذهاب فقط. بعد ذلك لا يمكن الرجوع إلى العش الآمن.

ـ تعجبني الدقة الساخرة في ما ترويه لي. أسأل عما تفكر هي به فتروح تخبرني عن جزيرة وبئر وساقية لمياه المطر. اضطرابك يثيرني. أظن أن هذا نوع من إزفستيا الحب. وتصحح لنفسها. إنها مثل جدتها الروسية التي كانت تخلط عدة لغات في جملة واحدة. أنا أيضاً ألاحظ علامات الحب. جسمي يختفي في كلمات ليلى. تلك التي تقول أنها تشعر بالسعادة من رؤيتي متعباً. جسمي يشعر بالعرفان. هذه علامة الحب.

ـ غداً سأخبرك شيئاً. تقول.

ـ لم ليس الآن؟

ـ لا. غداً. الآن تأخر الوقت. غداً مساء سيكون مناسباً. من دون عناق. سنتبادل الحديث بشكل جدي للحظة قصيرة.

نعم، لحظة قصيرة. أقول. لأنني سأمرض إن لم تضحكي بعد ذلك. تحتك أقدامنا لتقول لبعضها بعضاً: نوماً هانئاً.

* * *

في الحديقة أعمد إلى حرق شجر الغار فتنتشر رائحة قوية تجبرني على أن أغمض عيني.

من خلف البوابة يطل الوجه الفحمي لسليم. أدعوه إلى

Twitter: @ketab_n

غرفة الاستراحة. في داخلك تقبع روح القهوة. أقول. فأنت تظهر أمامي فجأة بمجرد أن أشرع في وضع القهوة على النار.

ـ أشعر بها من على بعد كيلومترات. من اللحظة التي تنتابك الرغبة في احتسائها. يقول بجدية. يجلس. أسأله عن الموسم. العمل جيد غير أن السكاكين سرقت نصف المردود. أمكن له أن يرسل نصف أتعابه فقط إلى أسرته. أربعة أشخاص يحملون سكاكين سرقوا المبلغ الذي لم يكفهم لقضاء ليلة السبت حين تقاسموه في ما بينهم.

ـ من يسرق عاملاً؟ أسأل.

ـ فتيان لا يشكون من أي شيء ينقصهم.

ـ أمر موجع.

ـ ذلك الوجع الذي يشعر به المرء ليس بسبب السكاكين بل من أثر الإهانة.

ثم يشرع سليم في احتساء القهوة معي ونحن نجلس أمام النار. يحمل غصناً بقي هناك دون أن يحترق ويشرع في تحريك النار به.

ـ يقول الرماد أن عليك أن ترحل.

يقول ذلك ببطء شديد وصوت هامس وأنا لم أسمعه إلا لأن هدوءاً جافاً ومليئاً بالدخان يخيم على المكان.

أنظر إلى الوهج الذي أثاره والذي يصدر صوتاً يشبه طنين

Twitter: @ketab_n

الحباحب. مثل صوت ليلى. ولكن بدلاً من أن يدفعني إلى الكلام فإنه يجبرني على الإصغاء. أشعر بالضيق من هذه النبوءة الطالعة من الأرض، من عيون سود منخفضة. أبلع ريقي. أكتفي بالقول أن ليس ثمة مكان أذهب إليه. هاهنا ليس ثمة من يطاردني. وليس هناك من ينتظرني في مكان آخر.

ـ يجب أن ترحل.

ـ لن أرحل أبعد من هنا. الآن الكلمة التي أتشبث بها هي البقاء. وفضلاً عن هذا ثمة امرأة أحبها.

ـ الرماد يشير إلى الدم. دمك أيضاً. الرماد لا يخبر شيئاً عن الحب.

ـ الرماد لا يعرف شيئاً عن حالي.

يبدأ سليم في تحريك الجمرات في زاوية أخرى، يقلبها، يحركها في كل الاتجاهات. يحدق في وجهي وينتصب عصب في جبهته ويقول: ولا أنا.

لا أعرف أي جانب من جوانب حياتي يهمه غير أنني أصدقه. قد تكون هناك محطات في حياته الماضية تشبه حياتي. إذا كان الأمر على هذا النحو فإن من شأن صداقتنا أن تزداد رسوخاً.

ـ ليس هذا فحسب، بل إن في حياتنا المستقبلية محطات تتشابه. ويذوي صوته مع آخر وهج من أغصان الغار.

ـ لا تقل هذا يا سليم. دعنا نأمل أن نلتقي مستقبلاً على

Twitter: @ketab_n

فنجان قهوة ودع الرماد رماداً. إذا كان للرماد من حنق تجاهي فالأرجح لأنه كان غصناً أخضر حياً منذ لحظة.

ـ أنت تعتني بالأشجار ولهذا فهي تحبك. هذه هي كلماتها لك. كلماتها الأخيرة.

ـ سليم، هل تعرف قط رجلاً يرحل بناء على إنذار من شجرة؟

ـ أنت تعرف رجلاً كهذا. إنه أنا. لقد رحلت بسبب رماد عش طائر النسر.

ـ أما أنا فآخر من يرحل. أنا من ينظف البيت ويقفل الباب خلفه.

ـ هناك إنذارات كثيرة تأتي مع أوراق الشجر والطير وقطرات المطر. الرماد هو الإنذار الأخير.

ألوذ بالصمت. أنهي شرب فنجاني.

صوت سليم هادئ يأتي من زمن لاحق. من الزمن الذي يتبع الزمن الذي نحن فيه الآن. يستنشق قليلاً من الهواء والدخان ويقول: نحن صديقان، لازم كوا رفيقي (هكذا في الأصل، المترجم)، يجب أن نظل صديقين. يحرك الرماد ويتركه.

أيها القديس الصغير من إفريقيا، أنت الذي تمنح الحكمة لأوروبي جاهل يتابع القمر على التقويم ويتابع حركة الغيوم

Twitter: @ketab_n

من النشرة الجوية ولا يعرف أن يقرأ كلمة واحدة من دون ألفباء. أهكذا تسير الحياة؟ بأن تنذرنا عبر الإشارات؟

يا لسعادتي إذ أعجز عن التنبؤ بشيء. لأن الأمر يتطلب صبراً كصبرك. يتطلب أنفاً عريضاً مثل أنفك وأسناناً ضاحكة كأسنانك. يحتاج المرء لجبين ناضح بالعرق مثل جبينك ورأس أشيب يطفح بالوقار مثل رأسك لا رأساً أبيض يشبه البيضة مثل رأسي.

ينهي سليم فنجانه ويشرع في تمتمة صلاة الشكر.

ـ أنت تتواصل مع الرماد والسماء. كيف تعلمت ذلك يا سليم؟

ـ أردد بعض كلمات الشكر وحسب.

أنفث نحو السماء أنفاسي التي تمتزج مع الغيوم وتتحول إلى حبات مطر. حين يصلي المرء فإنه يساهم في صوغ جسد السماء. تمتلئ الغيوم بالصلوات.

أرفع نظري، أرى الغيوم آتية من ناحية البحر. أقول: إنهم يرددون الصلوات في سردينيا. ثم نضحك سوياً ويقول إن الضحك جيد وأن الإيمان ينشأ من الضحك لا البكاء. ثم ينهض.

القهوة أيقظت بطني الفارغ وفي أعماقي أشعر بقرقرة حبي لليلى التي وقعت علي في الخمسين من عمري مثلما تقع حجرة على عش طير.

Twitter: @ketab_n

لم أعد إلى البيت في اليومين الأخيرين. أفكر بذلك وأنا أنظف الفناجين.

تصادفك دورية ولن تعود إلى الأبد. في الأرجنتين تأخرت عن موعد فنجوت. وصلت في اللحظة التي كانوا يأخذون فيها العائلة التي كنت سأقيم عندها في ملاذي الأخير. مكثت في الباص الذي أعاق الجنود سيره فيما كان آخر أصدقائي يصعدون إلى الشاحنة.

لا يستطيع الرماد أن يعلمني شيئاً، يا سليم، فأنا الرماد.

* * *

يصنع سليم باقات من زهور الزعتر والغار. هو ينوي أن يبيعها للمطاعم. الآن، وهي متفردة، بوسعها أن تستقيم منفردة على الطاولات بدلاً من الالتئام في باقات. في رأيه أن التجارة تحتاج إلى بضاعة غير مسبوقة وأن في وسع المرء أن يهيئ المجال لكي يكثر الطلب عليها، ولهذا فهو يرى أنه يقدم شيئاً جديداً. أسأله كيف تأتيه فكرة ما.

- أنظر إلى الحديقة. هناك أشياء جديدة كثيرة في كل حديقة ولكن ليس **ثمة بستانيون** كثر. قال ذلك وابتسم فبانت أسنانه لامعة. وخطر لي أن أهم شيء في هذا العمر الذي نحن فيه، هو وأنا، هو أن نحافظ على الابتسامة.

أنثر الرماد على التربة المحيطة بشتلة شجرة البلوط المزروعة تواً. أحاول أن أتكلم معها. أن أداعب جذعها الذي

Twitter: @ketab_n

لم يزل غصناً. ها قد حط طائر الهزاز الرقيق على أحد أغصانها.

يأتيني صوت سليم وهو يلقي تحية الوداع من وراء ظهري. تماماً مثل أشعة الشمس التي تضرب ظهري وأشعر بالحرارة فأفك الزر العلوي من قميصي الزهري وأشمر عن ساعدي. لقد نفذت رائحتي إلى القميص كما نفذت إلى الكتاب الذي أحتفظ به في جيبي.

* * *

أجلس في مقعدي المعتاد في غرفة المونة التي تطل على مدخل الحديقة. لأول مرة أراقب بتمعن كل من يدخل. أفكر بما قاله سليم عن نذير الرماد وأحس بقشعريرة في جسدي.

أولى الإشارات أنني أراقب ما يجري من حولي. لا أشعر بالراحة ويترتب علي أن أحافظ على رباطة جأشي. أشعر برجفة في عيني ويجعلني هذا أتذكر أشياء من الأرجنتين. أتذكر النظرات الخاطفة والسترة الثقيلة ويمتلأ أنفي بهواء ساخن. وتبدر من يدي حركة منسية وأكتشف أنها تبحث عن المكان الفارغ لبندقيتي في سنوات الجنوب. وقبل أن أسيطر على أعصابي ألاحظ كيف أنها تبحث عن شيء فقدته. ويستغرق الأمر وقتاً قبل أن ألتقط أنفاسي وأضع حداً لكل هذا.

يأتي صاحب البيت إلي ويجلس بالقرب مني. هو يحمل

Twitter: @ketab_n

في يده زجاجة من نبيذ الجوز المصنوع في البيت. يصب لي كأساً ثم يرفع كأسه ويشرب نخبي.

ـ بم تفكر يا رجل؟ بامرأة؟

أقول لا وأشعر أن التشنج الذي في مقلتي يزول وأن ابتسامة تطفو إلى شفتي.

ـ أفكر ببلد في الجنوب. سنوات كثيرة قضيتها هناك.

ـ لم تزل ترفض أن تقر أنك عدت، أليس كذلك؟

ـ بلى، هنا في البيت عندك على الأقل. هنا عندك يبدو البيت وكأنه ينتمي إلى زمن سحيق انفتح فيه الباب للجميع.

ـ هل ثمة ما يمكن أن نحتفل به؟

ـ نعم. نوع من عيد ميلاد. في مثل هذا اليوم منذ عدة سنين خرجت من السجن.

أشاركه الشرب: نخب الخروج من السجن. هو: نخب الرجوع إلى الوطن.

أفرغ الكأس بجرعة واحدة ثم أمضي إلى الحديقة وأنا أغرز خطواتي بقوة في الأرض وتختفي الأرجنتين من رأسي.

ينتهي يوم العمل ومازال هناك ضوء النهار. تنتظرني ليلى عند البوابة. لا تريد أن تتحدث في غرفة مغلقة. نمضي معاً بالسيارة إلى شاطئ البحر.

Twitter: @ketab_n

تكسو الأزهار المنحدر الممتد من المكان الذي أوقفنا فيه السيارة إلى الشاطئ.

أخلع حذائي وأنشغل بالمكان الذي أضع فيه قدمي أكثر بما ستقوله ليلى.

نجلس على بعض الأحجار ويسقط الضوء بزاوية حادة ويزيح أفكارنا بعيداً عن الكلمات المحمومة. أسمعها وأفكر بصخب الجنود الذين يقومون بحملة تمشيط في الجبال بحثاً عني. أعرف أن علي أن أغادر مخبأي. تتحدث ليلى عن رجل خيرها بين أن تقتله أو أن تدعه يقتلها. عملها في أن تجعل الرجال يتحدثون على وشك أن ينهار.

ـ الرحلة الأخيرة كانت صعبة. استغرقت وقتاً طويلاً. لم أفلح فيها. حملت فيها ذكرى يديك على جسدي. استغرق الأمر أياماً. تخللها القرف والشوق. والآن أعرف أن هذا يكفي. لا أستطيع أن أتحمل أكثر. هو أدرك ذلك. وضعني تحت الرقابة وصار يلح على اتفاق جديد. وأنا أحاول اللعب على الوقت. ولكن الوقت لا يمضي. لا يمكن الانسحاب من هذه المهنة. حين تعجز عن القيام بعملك يجب أن تهرب أو تموت.

أصغي إليها. أفكر بدفورا، الصبية من بوينس أيريس التي لحقت بها إلى الأزجنتين. أفكر بالأيام الجميلة التي قضيناها معاً. بأيام الأحد التي كنت أعمد فيها إلى إيقاظها بأن أرش

Twitter: @ketab_n

قليلاً من قطرات الياسمين على أنفها كي أراها تبتسم وهي بعد نائمة. وفي نفس الوقت يخرج الناس حشوداً إلى الشارع وهم يلوحون بالأعلام ومن شرفتها يبدون كما لو كانوا عناقيد عنب مرصوفة تحت الشمس. رؤوسهم تشبه حبات العنب. ولأول وهلة يخطر لنا أن هذه الحشود تنتمي إلينا وأنها تردد الأناشيد من أجلنا، نحن على الشرفة، وتعبر عما تريده منا. يمشون من تحتنا ونبقى واقفين على الشرفة نتابع سيرهم بأنظارنا. وهناك في الأسفل يقوم بعضهم بالتلويح لنا طالبين منا أن ننزل إلى الشارع وتنتابني الرغبة في أن أرد عليهم بالتلويح لهم طالباً منهم أن يصعدوا كلهم إلى الشرفة ولكنني أكتفي بتحيتهم بنظراتي، دون أن ألحظ أن دفورا قد نزلت إليهم وأنها تلوح لي وتحثني على النزول فأنزل. ولا يستغرق الأمر سوى سنة واحدة حيث يأتي ذلك اليوم اللعين حين يجرونها إلى السيارة منتزعين إياها من بين يدي وأبقى واقفاً في الشارع محني الظهر مثل مسمار أعوج.

أنا في مأمن. نجوت من الموت لأنني أحمل في جيبي جواز سفر إيطالي أخضر.

ـ إلى أين أخذتك معي، نوفيو ميو، هاهنا سيقتلوننا معاً.

وتدمع عيناها فأمرر أصابعي على جفنيها وأقول: ما هذه الذكريات المؤلمة؟

تلك كانت آخر كلماتي لها وآخر لمسة مني إليها، في

Twitter: @ketab_n

الشارع، قبل أن يفرقنا الموت. وأترك البيت وأمضي إلى حياة التشرد حيث يتحول كل مبنى سكني إلى ما يشبه البيت. من بيتنا المشترك آخذ معي الشيء الوحيد الذي ينتمي إلى دفورا: حذاءها الرياضي، الذي لم يزل رباطه معقوداً، لأنها تخلع الحذاء بأن تسحبه من كعبها سحباً. وظيفتي هي أن أفك الرباط وأجعل الحذاء جاهزاً من أجلها.

آخذ الحذاء معي، وقد جعلني القلق أتصبب عرقاً، من جهة لأنني أهملت وظيفتي، ومن جهة ثانية لأنني أشتاق لرؤيتها والحذاء في قدميها.

ثم أنسى الحذاء. وفي العام التالي يترتب علي أن أنتقل من أحد البيوت السرية التي أختبئ فيها فأجده من جديد، في قاع حقيبة في أعماق أحد الأدراج. من بعد دفورا لا أملك أي شيء لأنني من دونها لا أملك شيئاً على الإطلاق. مازال رباط حذاءها معقوداً. أنحني لأفك الرباط، أسحبه من ثقوب الحذاء ثم أتركه.

أعرف أنها ترقد في قاع البحر ويداها مربوطتان. أستطيع أن أفك رباط الحذاء فقط. بهذه الطريقة ألقي تحية الوداع: منحنياً أمام خزانة فارغة.

أفكر بهذه الأشياء فيما ليلى تتكلم. مرة أخرى أدرك أنه لم يبق شيء مني. في أطراف حي باليرمو بوينس أيريس، حيث تعرفت على من بقوا أحياء من الإيطاليين الأوائل الذين أتوا

Twitter: @ketab_n

إلى البلد. عملت في مصنع للأحذية. هناك تعلمت التعامل مع الجلود، وفي كل يوم أحد كنت أشعر بسعادة الحب في أحضان دفورا حيث نتبادل الهمس عن أننا سنبقى معاً إلى أن نصبح عجوزين ونصاب بالخرف.

لم ينتابني قط أي إحساس بالندم إزاء إطلاق النار، الحرب الصغيرة، الانتقام الذي قمت به ولم أدفع ثمنه.

لماذا خرجت سالماً؟ لا أستطيع أن أشرح السبب. لا أستطيع أن أصحح ذلك. أسمع قليلاً مما تقوله ليلى. عودة قصيرة إلى الأرجنتين التي كانت تمارس الهمجية.

جميل أنني لم أمتلك غرفة حتى الآن. جميل أن أرى جانباً من البحر وليس نهر ريو ديلا بلاتا كله. لا تطلب ليلى مساعدة. إنها تخبرني ذلك كي تكون صادقة معي، مثلما كانت في المرة الأولى. لا تريد أن تحشرني في مشاكلها. أنا أصدقها. أشبك يدي الفارغتين وأفكر. ها أنت أيضاً أصبحت تتكلمين عن الموت.

تتشابك الأيدي، والكلمات أيضاً. لا أتفوه بشيء. ولكن ليلى تقول شيئاً: أنا أيضاً صرت أتكلم عن الموت.

إنها تسمع ما يدور بخلدي. لا أبدي أي رد فعل. ليست لدي أية كلمة يمكنني أن أخفيها عنها. لا بد أن الإصغاء إلى أفكار الآخرين أمر مزعج. إن هذا يخلق صخباً حتى ولو لم

Twitter: @ketab_n

يتفوه المرء بشيء. أن تعرف أن الشخص الذي تتكلم معه يفكر بشيء آخر. هذا شيء منهك.

البحر بنفسجي اللون مثل زهرة ندى الجبل. النسمات الأخيرة المرافقة لغروب الشمس تجعل شعرها يتطاير نحو جبيني.

ـ أبهذه الطريقة تنتزعين أفكاري؟ بخصلات شعرك؟

ـ لا، هذه موهبة موروثة من عالم الحيوانات. إنها من آثار عقل الأفاعي والأسماك والسنونو.

على أي حال بهذه الطريقة تظهر الموهبة الفريدة التي تملكها ولكنها لا تستطيع أن تقرأ الأفكار إلا عن قرب.

ـ هل يخيفك هذا؟

ـ لاشيء من حبنا يخيفني.

تطوق ذراعي بيديها وتقول:

ـ أنت تجعلني أنسى من أنا.

ـ لا، أنا أجعلك تتعرفين على نفسك أكثر. أنت المرأة التي أحبها. أنا واثق من هذا أكثر من أي شيء آخر.

ـ أنت تداعبني بطريقة تتغلغل إلى العظام. قبلة تخترق النخاع. أنت تنشر السلام في كل جسدي.

شعرها يضرب وجهي. تريد أن تقف في وجه الريح. لا. لا أريد أن يتطاير شعرك في الفراغ.

Twitter: @ketab_n

نمكث لحظة صامتين لكي نتذوق ملوحة الريح التي بدأت تهدأ.

ـ القتل يبعث على الغثيان يا ليلى. لا يتخلص المرء من قيح الموت، بل يبقى ملتصقاً به طول العمر. أنت شابة، تظنين أنه حالة عابرة وأن في وسعك إن أردت أن تنسيه. ثم يأتي يوم وأنت تعيشين في بهجة وتفتحين عينيك على وسعيهما للحياة وتشعرين بالهواء يدخل إلى رئتيك وقد تفكرين بأنه مؤلف من قسم صغير من الأوكسجين وقسم كبير من النيتروجين وإذ تكونين أبعد ما يكون عن الدم، في تلك اللحظة يعود إليك. لأنك تتنفسين. لأنك كائن حي. كائن حي ملعون. وتوردين الأسباب الطارئة التي أدت إلى سفك الدماء وتكررين لنفسك بأنك تنامين قريرة العين في هدوء الليل وأن النوم يحقق الراحة والتخلص من الشعور بالذنب. ولكن عبثاً. القتيل مازال هناك مربوطاً إليك بقيد لا ينفك. وليس لذلك علاقة بالندم. ولا يحتاج المرء إلى الأرق. ولكن ثمة كراس فارغة من حولك. وهناك سيدة تمشي على الرصيف المقابل. ويتفتت الخبز بين أصابعك. الوجوه التي تتشابه. الشعور بالقلق من سماع صوت خطوات من خلفك. وفجأة يبتسم الحظ لك. ويخطر لك أنه كان ممكناً أن تقف على خط النار. وأنه لم يكن من حقك أن تطلبي الحماية. وحين تقرين بكل ذلك، تشعرين بالارتياح.

Twitter: @ketab_n

هناك الكثير من القتلة الذين يستسلمون للقتل. وأكرر على مسامع ليلى تلك الصيغة السحرية التي من شأنها أن تحمي حبنا.

ـ ولكنه سيقتلني. لأنني لا أريد الاستمرار على هذا النحو. وكإنسانة حرة فأنا أعتبر خطراً عليه. وهو يعرفك وهذا بحد ذاته يعرضك للخطر.

ـ لا أستطيع أن أحميك من الشر.

هذه هي المرة الثانية التي أعجز فيها عن القيام بذلك. ولكنها المرة الأولى التي أجد نفسي فيها مشلولاً وأتأخر في الإتيان برد فعل أو القيام بانتقام. الآن وقد قضيت نصف عمري مهاجراً، الآن أعجز عن إنقاذ أحد.

لا تستطيع أن تخرج من الماء بملابس جافة. أنا أفيده طالما بقيت على قيد الحياة. ولكن قد لا يكون ذلك كافياً له. ذات يوم سيكتشف أنني أعرف أكثر مما ينبغي. وهذه مصيبة لأنها الحقيقة. الآن أريد أن أصل للخلاص وحسب. حتى الآن كنت أفكر أنه يجب علي أن أصمد ولكن فجأة أصبح من غير الممكن الصمود. خلاص. الآن ها أنا ذا أمام أحد الحلول السريعة. لقد قرع جرس الزمن لي. من خلال التجاعيد التي في عنقك. من الطريقة التي تبلل فيها إصبعك باللعاب. من الصمت الثقيل الذي يخيم على أفكارك. الآن

Twitter: @ketab_n

أريد أن أتخلص. القتل والهرب من ناس يعرفونني ولا أعرفهم.

ـ من هم؟

أحاول أن أتخيل من دون أن أسالها.

ـ ناس مهيأون للقيام بأعمال الشر. أنت تعرفهم.

ـ أنت تحتاجين للمساعدة.

ـ لا. كلما كنت تعرف أقل كان ذلك أفضل.

ـ في وسعهم البحث عني.

ـ لا أعرف. لست متأكدة. إنهم موزعون في جماعات متفرقة. كل جماعة ضمن نطاقها الخاص. الأرجح أنك مازلت تعرف محيطه. ومع هذا لا تستطيع أن تقول شيئاً. لن أترك عنواناً.

ـ هذا يكفي يا ليلى.

في اللحظة التي أقول فيها ذلك أشعر بالجفاف في عيني. ألمس الكتاب الذي في جيبي طلباً للدعم. على جبيني أشعر بلفحة الهواء من موجة ثانية. إنه هواء المحيط الأطلسي الجنوبي. في أعماقي يشتعل الغضب والتصميم على ألا أقع في أيدي الأرجنتينيين الذين جاءوا لاحتلال جزيرة سوليداد.

إنه الخريف. تركت ماريا دون أن أقول لها شيئاً. هي

Twitter: @ketab_n

واحدة منهم. لقد عدت إلى اليابسة حيث تسود المطاردة والاعتقالات.

أختبئ في بقعة قصية من ساحل الجزيرة تدعى «ممر الصقر» وهي أقصى نقطة في الجنوب حيث تكثر العواصف وطيور البحر والأمواج والريح التي تصم الآذان.

أقضي الوقت في ممارسة صيد السمك وشرب ماء المطر. أسرق البيوض من الأعشاش. أوقد النار في الليل. وأشعر بالمصيدة تضيق علي. أقاوم كل ذلك من أجل البقاء. أكتشف بقايا سفينة محطمة فأصنع من أخشابها مكاناً للاختباء. أقضي النهار متخفياً أراقب البحر. أشعر بكياني وهو يقسو كي يتأهب لتلقي الضربة القادمة ويتحملها. لم يعد ثمة سبيل آخر للهرب. هاهنا نهاية الأرض. لم يبق المزيد من الجنوب الذي يمكن اللجوء إليه. ليست هناك أرجوحة يمكن الجلوس فيها والاستسلام لنعاس الخلاص. أرى البحر الذي يخرمش الصخور، والأظافر البيض للأمواج تشكل الخط الذي يفصلها عن اليابسة.

أرى الخط الأحمر لغروب الشمس الذي يفصل بين الليل والنهار. يخطر لي أن الكون قائم على فعل «الفصل» وأنني أنتظر الخط الذي يفصلني عن أيامي. والحياة هي خط متواصل طويل والموت هو العودة إلى نقطة البداية، بدون

Twitter: @ketab_n

جسد. وأنعطف باتجاه الأمواج في أسفل المنحدر. والسمك الذي أمامه البحر كله ليختبأ فيه ينسل بعيداً. والطيور التي تحلق فوقي. كل طير له عالمه الخاص بمعزل عن بقية الطيور. إنهم يرتبطون بعلاقة عائلية لا مع أجنحة الطيور الأخرى بل مع الهواء وكل بيضة من بيوضها هي بمثابة عزلة. وكل مساء أهيئ لنفسي طبقاً من العزلات في العتمة أسد بها جوعي. وحين ينتابني إحساس بأن وقتي فارغ من أي محتوى أفكر بالوقت الذي يمضي في هذه الأثناء في حال سبيله جنباً إلى جنب وقتي في عالم فارغ من المحتوى: إنها الأشجار التي تنثر حبات الطلع من زهورها والنساء اللواتي ينتظرن جريان الماء والولد الذي يحفظ سطراً من دانتي وآلاف الأجراس التي تقرع في كل مدرسة في العالم إيذاناً بالفرصة والنبيذ الذي يختمر للمرة الثانية وكل الأشياء التي تحدث في وقت واحد وبالتالي ترتبط بوقتي وتمنحه محتوى.

إنها أفكار من خارج الحياة يا ليلى، أعرف أنك تصغين.

تنصرم عدة أسابيع. ثم يعثرون علي، لأنهم لا يكفون عن مطاردتي. وأركض من فوق الصخور. يطلقون النار باتجاه الريح. وتنطلق شظية صغيرة من الرصاص وتخترق رئتي ويبدو لي أنني رأيتها في اللحظة التي خرجت من صدري وسقطت بعيداً. وأنطلق وراءها إلى أن ينقطع نفسي وفجأة يهدأ صفير الريح في أذني وأشعر بهم يركلونني كما لو كانوا

Twitter: @ketab_n

يركلون بوابة. ويريد أحدهم أن ينهيني هناك وفي الحال بينما يقول آخرون أن الأفضل إرسالي إلى البلد ويرمونني على ظهر شاحنة كما لو كنت طريدة ويقودون السيارة عبر المدينة وهم يطلقون النار في الهواء لأنهم ألقوا القبض على إرهابي. ويطلقون علي اسم أباريثيدو (الفرجة) ويلقون بي في السجن. ويقوم طبيب إنكليزي بتقطيب الجرح في مكاني دخول الشظية وخروجها ويتمنى لي الشفاء ويطلب مني أن أتحلى بالصبر لأن جماعته في الطريق. ولا أعرف من هم جماعته. ولكن بعد عدة ليال أسمع صوت المدافع من ناحية البحر.

وأتمدد على التخشيبة في الزنزانة وليس ثمة حراس ومن الزنازين الأخرى تنطلق صرخات لسجناء يقولون أنهم جوعى وأنهم لم يتلقوا الطعام منذ عدة أيام فيأتون ويفتحون الباب وتعم الفرحة الجميع وأعجز عن التنفس ولكنني أعرف أن الموت بصق في وجهي هذه المرة أيضاً.

وكل هذه الحكايات على مقربة من رأس ليلى. ومرة ثانية ليس ثمة وقت ويجب أن نتدبر ليلة أخرى، ليلة نفترق فيها.

عندما نجحنا أخيراً في الخروج من البحر كان الظلام قد خيم. أرتدي حذائي وأضع ذراعي تحت ذراعها. طالما بقينا على قيد الحياة سأبقى هنا. قلت لليلى.

دعنا نعثر على غرفة. قالت. دعنا نمارس الجنس. أن تخترق رصاصة جسدك دون أن تقتلك، هذه بشارة. ولا أريد

Twitter: @ketab_n

أن تمر من دون أن نحتفل بها. نمضي إلى غرفتي المتواضعة في طرف البلدة قريباً من البحر حيث تمتد الملابس المنشورة للتنشيف دائماً وأبداً أمام النوافذ وتتصارع سواعد النساء المشمرة وهي تنهال على الغسيل ضرباً على البلكونات.

تفوح رائحة رطبة من المطبخ وأفتح النوافذ فتدخل أصوات المشجعين في مباراة كرة القدم من الملعب الذي يقع في الساحة المجاورة.

تروح ليلى إلى النافذة ثم تفتح الأدراج وتعثر على فتاحة القناني ومن حقيبتها يلوح عنق زجاجة وإذ أضع الكؤوس على الطاولة تبدأ هي بالهمهمة، تلك التي أعرفها جيداً. أحاول أن أجبرها على التوقف بيدي ولكنها تزيح يدي جانباً ومن جديد أسمع كلماتي تنساب مني.

أراهم وأنا أنطق الكلمات.

هناك بيت بمحاذاة شارع عريض تصطف على جانبيه أكواخ هزيلة. داخل البيت ثمة رجل ينهمك في ارتداء بزته وفي الشارع يستعد رجل آخر لإطلاق النار. ليس ثمة مرافق باستثناء السائق.

أثناء خروج الضابط من البيت أركض خارجاً من الكوخ. لدي ميزة أني سريع ووحيد وأعصابي باردة. وينطلق صوت أغنية من مذياع وتنتشر الأنغام فأنتهز الفرصة. أرى القسم العلوي من بذلة عسكرية ويداً تتلمس، متأخرة، مسدساً

Twitter: @ketab_n

والسائق الذي يحاول القيام بشيء ما، ثم يقفز ليختبأ وأنط وأجلس في سيارته وأقود بسرعة وأسمع صوت طلقات ولكنني أسمع بشكل أوضح الأغنية التي تنطلق من جهاز المذياع في السيارة، الذي بقي مفتوحاً.

وبعد أن أقود السيارة وألعن ساعة من الزمن أتوقف عن الكلام وأشرع في ترديد تلك الأغنية وحين أبدأ بالغناء يتوقف ضجيج خلية النحل من ليلى بفم مغلق. أغني فتتوقف الحكاية. أغني فلا يبقى ثمة شيء يترتب علي الخضوع له وأصبح من جديد سيد صوتي.

وتقول ليلى أنني الوحيد الذي أستطاع أن يرفع من منسوب الافتتان عندها وأنها سعيدة لأنني لم أعد مغلولاً إليها. الغناء هو الذي يفك الأغلال ويحررك من صوتي. الآن تعرف ذلك. وتقول أن هذه إشارة إضافية على أنها ستضع حداً.

ما عادت لك سطوة علي. أقول. ولكن معك أبقى راسخاً مثل مسمار في جدار. تتشبثين بي وأتشبث بمكاني لأنك تريدينني ولا أجد في العالم كله شخصاً يريد الاستحواذ على شخص آخر بمثل هذا العنفوان.

أريدك. تقول. أنت تناسبني ويناسبك أن تأخذني بالأحضان وتحتفظ بي. أحبك لأنني أعشق الرجال وأكرههم في آن. أحبك لأنك كامل بالرغم من أنك تركة من حياة أخرى.

Twitter: @ketab_n

أحبك لأن ما بقي منك رائع بقدر ما كنته حين كنت كاملاً.
أحبك لأني لا أبالي بالأجزاء التي اختفت منك.

نجلس صامتين. نشرب نبيذها الذي أعدته للسفر. أقطع جبنة محفوظة بعناية. أبهرها قليلاً وأرش قليلاً من زيت الزيتون عليها.

حين تأكل تحرك فكيها بقوة وتمضغ لفترة طويلة وتبلع ببطء وتستنشق الهواء بعمق.

لا زالت لدي أصص كثيرة من الريحان. تلك هي كنزي من البهار.

تلتقط حبة بندق وتضعها في يدي. أضعها على الطاولة وأكسرها بضربة سريعة من المقلاة. قطعة مفتتة كتلك التي يحبها الأولاد في الساحة حين أريهم إياها من النافذة.

تضحك ليلى. لديك سرعة خارقة. الحق على أميركا.

ثم تأخذ طابع الجد وتسأل ما إذا كان بالإمكان التخطيط لهجوم من دون التفكير بمنفذ للهروب. ما إذا كان على المرء أن يكون مجنوناً أو مجرد صلب الإرادة كل يستطيع أن يقتل ويقتل.

هكذا هي أميركا الجنوبية، يا ليلى.أيام طويلة من دون صباحات. لا يتبقى منا سوى قلة قليلة. نرمي أنفسنا في المعركة مثل وحوش ضارية. نمضي نحو طلقات الرصاص

Twitter: @ketab_n

دون أن نحني قاماتنا لأنه سيان إن بقينا على قيد الحياة أم لا. نحن أسماك في مستنقع ضحل.

لا تسأليني عن ذلك يا ليلى. لست مثلما كنت. لا أحد يستطيع أن يبقى مثلما كان فترة طويلة. لهذا تنتهي الحروب. ويتنفس الجيل التالي الصعداء ويواصل العيش تاركاً الماضي خلف ظهره. طريق النجاة. تقولين. أتذكر الهروب. لا أتذكر أي طريق. كنت الأخير. ولقد هربت إلى آخر نقطة في جنوب الأرجنتين من دون توقف.

ركضت في السهول العارية في الجنوب، حيث بإمكانهم رؤيتي على بعد كيلومترات، ولم يكن ثمة مكان يمكن الاختباء فيه. كنت أريد الذهاب إلى أبعد بقعة من البرية. كنت أحس أني أختبئ وراء الريح التي كانت تجبرني على إغماض عيني وكانت تزيح النوم عن عيني. في الليل كنت أسير بمحاذاة الطريق الرئيسة فإذا ما لاح ضوء من بعيد أسرع إلى الاستلقاء بسرعة وراء شجيرة. في النهار أبتعد عن الطريق وأتمدد في مكان آمن وأنام. في أحد الأيام أيقظتني نعجة. حلبتها وشربت ألذ حليب ذقته في كل حياتي. قضيت عدة أيام مع النعجة. كنا نسير جنباً إلى جنب نتبادل النظرات. كان النسيان يغمرني. أنظر إليها وأنسى كل شيء. كانت ترقد بالقرب مني. وكانت تلحس أنفي في ضوء الفجر. كنت

Twitter: @ketab_n

أناولها حفنات من الملح الذي كان بحوزتي. وكنا نرتوي من نهر يجري بالقرب منا ويختفي وراء المنحدر. كنا نتبع النهر في سيره المنحني. من على بعد مسافة طويلة لمحت مستنقعاً مغلقاً. سارت النعجة نحوه. أما أنا فقد عدت أدراجي. وقضيت يوماً كاملاً في النهر للتخلص من البراغيث. كنت أبحث عن القمل في ثيابي مثلما يبحث المرء عن بلد على الخارطة. سبحت واستحممت وغسلت ثيابي ثم نشفتها.

تعلمت ألا أخاف من الثعابين. حيوانات ذكية تلحس الهواء. بعد يومين عثرت على الطريق الرئيسية وشرعت في السير باتجاه الجنوب طوال الليل. أنا والليل صديقان. كان يوسع حدقتي ويرتب أفكاري. في إحدى الليالي لمحت من بعيد ناراً متقدة بمحاذاة الطريق. أخذت أقترب منها بعكس اتجاه الريح فإذا كان ثمة كلب فلن ينتبه إلي.

سمعت أصواتاً. متسلقا جبال إيطاليان تعطلت سيارتهما. انتظرت حتى انبلج ضوء الفجر ثم تقدمت منهما وقدمت نفسي إليهما بوصفي مساح أراض أرجنتيني. أخبراني عما حدث لهما فأظهرت تفهمي وساعدتهما على تصليح السيارة. مقابل ذلك حصلت على حساء وأخذاني معهما بالسيارة. كان مر أكثر من شهر لم أتذوق طعاماً ساخناً. أخذت أمعائي تضج فرحاً. لم يطرحا علي أي سؤال. أخبراني عن برنامجهما التالي. سيسلكان طريقاً جديداً نحو سلسلة من الجبال

Twitter: @ketab_n

الغرانيتية في أقصى جنوب الأرض. وهما كانا يتحدثان بجدية عن هذا الأمر. لم يتحدثا سوى عن ذلك. لم يكن معهما نقود كثيرة وقد مر أسبوع وهما يتبعان الخريطة ويتطلعان إلى الأمام. لا أتذكر قط أني عشت مثلهما. أستمع إليهما بشغف. إنهما شخصان مهووسان. لا ينظران خلفهما. عيناهما إلى الأمام دائماً. هذان شخصان لا يتراجعان أبداً. استلقيت على حبالهما المكومة وشعرت بأعصاب ظهري وهي تنتفض. وفي كل مرة يقومان فيه بخطوة كان يترتب علي النهوض والوقوف على جنب.

أرحل الآن مع ناس لا يفكرون في من يلاحقهم من الخلف. الأخطار أمامهما. أستمع إليهما وأشعر بالارتياح. الطريق الآن تاريخ من حبال وخرائط لا من أرض ونجوم. أتمعن في الطريق على الخريطة. لأول مرة أعرف أين أنا وإلى أين ستقودني رحلتي. بمحرك تحتي أعرف المكان الذي أمضي إليه هنا في الجنوب. على بعد يوم واحد وحسب. أنام خلف أفضل شخصين أجنبيين. شخصان يشكلان خطراً على نفسيهما فقط. يلاحقان حبلاً مشدوداً ويمضيان في طريق يصعد إلى الأعلى. أنتهز هذه الفرصة العظيمة كي أتبعهما. لأول مرة أسير في خط مستقيم. ولكن طريق نجاتي يسير في خط متعرج، مثل مسير الخفاش.

كان المساء حل حين طلبت فجأة أن أنزل من السيارة

Twitter: @ketab_n

وودعتهما. ثمة شارع في بلدة على الساحل. أمضي إلى البحر. أمرر يدي على ظهر قارب متروك على الشاطئ، أتعرف إلى رائحة طفولتي في البحر المتوسط. حاولت أن أبدو كبحار عندما دفعت الباب. الغرفة مليئة بالدخان. نفحة الهواء التي تبعتني اهتزت في الغرفة مثل خرقة بالية. ضوء المصباح يغمر على الفور وجه من يدخل. عم تبحث، يا رجل؟ سأل صوت من خلف الطاولة ولكنني أردت أن أعرف ما إذا كان المكان يناسبني أم لا. أطرقت برأسي ومضيت بهدوء صوب الصوت رغم أن الاستقبال كان صادماً. جلست وقلت أنني أبحث عن مكان أنام فيه وغرفة للبحارة.

للسفر أم للعمل؟

الآن لم يكن الضوء في وجهي فرأيت الرجل: دب من دون فراء. وضعت يدي على الطاولة وقررت بشكل عفوي الدخول في الموضوع مباشرة: أنا لست بحار ولكني مستعد لأن أقوم بأي عمل لتغطية نفقات السفر.

ـ هذه أشياء يقوم بها المراهقون. أنت في عمر لا يتناسب مع هذا.

الآن نظرت إليه. رأيت عينين زرقاوين قاسيتين. لا يقل عمره عن السبعين وشعره أبيض كالثلج.

ـ عمر الإنسان يطول بقدر أعمار ثلاثة أحصنة وأنت قد دفنت الأول.

Twitter: @ketab_n

ـ لدي بعض النقود وفي وسعي الانتظار. قلت.

ـ لا أظن ذلك. أنت في عجلة من أمرك. لقد اتجهت نحو الطاولة بحذر.

ـ هل تستطيع أن تساعدني؟ سألت. ولا أعرف ما الذي دفعني إلى قول ذلك بدلاً من أن أخرج وأهرب شاهراً المسدس الذي معي كي أمنع أحداً من تتبعي.

ـ أرني يديك. قال.

مددت يدي. كانتا متسختين، صلبتين. قلبهما وتفحصهما.

ـ مازال فيك قدر كبير من الخير. سأدعك على متن إحدى السفن. وهكذا يمكنك الرحيل. ستتدبر أمرك ولكن هذا سيكلفك الأبناء. لن تنجب أولاداً أبداً. أمثالك لا يحتاجونهم.

وفي اللحظة التي كنت أهم ببصقه على وجهه شعرت بألم في أسفل بطني وأسرعت بوضع يدي على تلك المنطقة.

وقال بصوت مختلف تماماً، يشبه الهمس، أن هناك غرفة للنوم في الطابق الأعلى وثمة سرير خال وأن علي أن أمكث هناك ولا أخرج وأنه سيأتي شخصياً ليصطحبني وقت الأكل. ولم أعرف سبب ذلك كله ولكني وافقت على ما قاله. صعدت إلى الأعلى وكانت صالة واسعة وغسلت نفسي ثم حاولت أن أنام في سرير لأول مرة منذ هروبي. هيأت المسدس في وضعية الإطلاق فإذا ما قرر أن يستدعي البوليس سأكون على أهبة الاستعداد. قبل أن يغمرني النوم خطرت لي

Twitter: @ketab_n

فكرة كئيبة. النجاة لا تعني سوى الغوص أعمق في المصيدة، وليس الخروج منها. النجاة يكمن في الموت.

أيقظني الرجل كي أخرج وأتناول الطعام. عصيدة سمك أعدّها بنفسه ووضعها على الطاولة. شرعت في التهام كرات السمك بيدي تاركاً الحسك وحده ثم أخذت أشرب المرق من الصحن مباشرة.

كنت أجد صعوبة في المضغ. وكان وجهي مثل قناع من الكرتون فشل الأكل في تليينه. ولا حتى الابتسام.

على الجدار أمامي خريطة للعالم. مقلوبة رأساً على عقب. القطب الجنوبي في الأعلى. لاحظ الرجل أنني أحدق فيها.

ـ أنت من الشمال. قال. أهل الشمال لا يفقهون شيئاً عندما يرون كوكبهم الجميل مقلوباً رأساً على عقب. أما نحن فبالعكس نرى العالم على هذا النحو. الجنوب في الأعلى.

بقيت أنظاري معلقة في الخريطة.

ـ يأتي البحارة الإيرلنديون إلى هنا ليملأوا مثانتهم بالجعة. ينهضون ويحدقون ويميلون برؤوسهم مثل الكلاب التي تشم رائحة غريبة. أنتم، أهل الشمال، عميان. يمكن التأكد من ذلك بمجرد قلب الخريطة رأساً على عقب. أنظر إلى بقية العالم. كلهم يتجهون صوب الشمال. كلهم. لقد انتزعوا أنفسهم من القطب الجنوبي وشرعوا في السير نحو الجهة

Twitter: @ketab_n

الأخرى من الكرة الأرضية. إنهم يزحفون نحو الشمال. يتركون البحر وراءهم. موجات البحر أيضاً تنهض من هنا. فهنا أعالي البحار. قمة الكرة الأرضية. هنا أيضاً أرض صلبة. يابسة. جبال وبراكين. ليس كما عندكم مياه متجمدة وكتل الجليد. أنتم في الشمال ترسمون خرائط مزيفة تضعون فيها قطبكم الجميل في الأعلى بينما هو في الأسفل على أرض الواقع. وتشغلكم كثيراً جهات مثل الشرق والغرب بينما نحن لا يهمنا سوى مزاج الماء إن ارتفع هنا أو هناك. نحن هنا في قرن العالم نقعد على الأرض كي لا تكنسنا الريح.

أستمع إليه وآمن بكل حرف يقوله وبالوعد الذي يقطعه لي بأن يوفر لي غرفة في السفينة. وسرعان ما تطل سفينة صيد ايرلندية فيحجز لي مكاناً فيها.

يا له من شخص هذا الرجل الذي يقرأك مثل كتاب مفتوح ويقلب الخريطة رأساً على عقب. ابتسمت رغماً عني فأنا عاجز عن تحريك أية عضلة في وجهي. يداي ملوثتان بالدهن. أمرر ظاهر يدي على فمي. كي أحركه، أنتزع تكشيرة منه. أعجز عن رسم ابتسامة أقل جموداً.

يرفع كأسه الملأى بماء كثيف حامض ويدعو لي بالصحة ويقول أنه سيدفع التكاليف وأبادله النخب وأحس بالشراب ينزلق إلى داخلي مثل سكين يخترق الصدر وأعصر عيني كي

Twitter: @ketab_n

أمنع الدموع من الطفر. إنه ماء ناري أنا الذي لم أذق الخمر منذ سنوات.

يتلقى قلبي الإشارة الدافئة قادمة إليه عبر جسدي. شعور بالأمان إزاء إنسان آخر. أسلم نفسي لهذا الدب الأصلع الذي يستطيع بضربة واحدة أن يرسلني إلى البحر أو أن يقصم ظهري والآلهة وحدها تعرف أي إيحاء يمكن لروحي أن تعطيه فيفعل هذا الشيء أو ذاك.

الخريطة المقلوبة تبدو الآن صحيحة تماماً، إنها تدلني إلى العيش في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية. ما كنت أعتبره هروباً إلى الأعماق يلوح الآن طلوعاً إلى الأعلى. أقف الآن على قمة صخرة وأنتظر أن أقفز منه لأغطس.

في الليل أتمدد على سرير معدني في غرفة مشتركة. ثمة بقايا الأنفاس المرة لبحارة ينتظرون أجورهم ومسافرين ينامون في غرفة سفينة عابرة. نحن ناس في غرفة شحن لا نخرج إلى البحر ولا يتكلم أحد مع جاره. في النهار يطرق الجميع برؤوسهم مثلما يفعل عباد الشمس في الليل.

عندما تأتي السفينة أخيراً يقول لي: اصعد إليها في الليل. لا تأخذ معك أثقالاً. لاشيء سوى ملابسك. إرم الباقي، لن تحتاج إليها أبداً.

ليلى تحتضنني. ترفع نخبي. ترفع الكأس إلى فمي. أجلس

Twitter: @ketab_n

وأنا أشد قبضة يدي وأستمع إلى أصوات العائلات ممن يجلسون حول طاولات منتصف الليل من حولي.

تقول أنها لا تعرف أحداً يتكلم عن الماضي بصيغة الحاضر.

ما شأني بطواحين النحو؟ أنا لست سيد الزمن بل خادمه. الماضي التام وكان يا ما كان تناسب المؤلفين. وصيغة المستقبل تفيد العرافين الذي يجنون الثروات من تنبؤاتهم. أما أنا فأكترث للعيش خلال يوم واحد. البقاء حتى وقت متأخر من الليل هو بمنزلة الموت عجوزاً. المستقبل لا يحتاج إلى استعمال الفعل بل إلى الاسم. مستقبلي يكمن في كلمة «مجرى». المجرى الذي يقود ماء المطر إلى بئر مجهول في جزيرة عطشى.

مستقبلي يقوم في فعل ملعون، منهك ووسخ. تقول.

فعل يقتل. تسأل وتحني رأسها وهي ترفع ذراعها عن ظهري.

ألوذ بالصمت.

الفعل الذي جرى استعماله أول مرة يستوطن الجسد للأبد.

برد خام يخترق الغرفة. تتداخل الأصوات المنبعثة من أجهزة التلفاز وتنتشر في جنبات الغرفة حاملة الحب والحنان.

Twitter: @ketab_n

الغرف تعيش حياتها الكهربائية. أقوم بإغلاق النوافذ دون أن أشعل الضوء.

ـ لم أعد أملك سلطة عليك. الآن صرت تعرفين أن الأغنية انتزعتك من صوتي. مقطع واحد كان كافياً لتحريرك مني.

مع أنني بقيت أغني حتى الصباح مثل بلبل أعمى فإني فشلت في التخلص منها. مضيت إليها، طوقتها بذراعي، ودرت بها في الغرفة، وتوقفت عند النافذة وغنيت لها: آه، يا جندولتي، جندولتي الجميلة، تتأرجحين بين ذراعي. وأخذت تتمايل في حضني يمنة ويسرة مثل أرجوحة معلقة.

ـ إذا كنت بحراً فاحملني.

مددتها على الفراش في السرير. وخلعنا ملابسنا وتعانقنا، عاريين.

هذه الليلة هي مكان الاختباء الذي يجب أن نفرغ فيه غضبنا. هي ليست مكاناً لقضاء شهر العسل. يتلاصق رأسانا، ونتبادل الكلمات السديدة، تلك التي تزرع الحب وتجعله يدوم طويلاً رغماً عن كل شيء.

أسندت كوعها على المخدة وأخذت تنظر إلي ووضعت إصبعها على مكان الجرح الملتئم الذي نتج عن الشظية التي

Twitter: @ketab_n

اخترقتني. قالت أن بودها البحث عنها كي تصنع منها خاتماً للزواج تضعه في إصبعها.

ـ من الصعب، أيها البستاني، أن أتدبر أمري من دونك. أستطيع أن أفكر بهدوء وصرامة وأنا ممدة لوحدي، أو مسرعة إلى لقاء. أستطيع أن أفكر بتفاصيل الهرب كلها. ولكنني لا أستطيع أن أفكر بشيء من دونك.

ليلى، أنا بالنسبة لك حب بخاري. تلك القوة التي أدارت أولى القطارات وحركت أولى السفن من دون أشرعة. الحب الذي يسير بالقوة البخارية مناسب لعمر محدد.

ستجتازين أعماراً كثيرة. الآن أنت في بداية القرن التاسع عشر. الآن ستخرجين لخوض حربك الخاصة. وإذا خرجت منها سالمة لن تتأخري في التعرف على الحب الكهربائي الذي يدار بقوة التوربينات. لا يمكن التعرف إليه من هنا. الحب الذي أمنحك إياه هو حب وعاء بخاري يسخن ببطء على الحطب والفحم. إنه يفيد كخطوة أولى نحو الانطلاق. السنوات الثلاثون من عمرك توقفت في محطة الاستراحة للحظات. أصدق كل ما تقولينه. أن حياتك في خطر. وأصدق ما تقولينه الآن، بأنني أحركك. ولكنني سأتوقف وستمضين إلى الأمام. وأتمنى أن تخرجي إلى الجهة الأخرى من الحياة وأن يكون كل شيء على ما يرام هناك.

Twitter: @ketab_n

ـ يا حبي السائر بالقوة البخارية، سنعيش أياماً مضيئة وإذا بقيت على الحياة سأمضي إلى الجزيرة بمجراك.

ليس النهار هو الذي يأتي بل الليل يتوقف. أعرف هذه اللحظة. يقف الظلام مثل جدار. ثم تسري رجفة في ورقة مرمية في الشارع أكثر خفة من مروحة تحركها يد صغيرة. ثم يلبس رجل حذاءه بصمت ومن دون أن يشعل ضوءاً، بجانب زوجته، ثم تحني هي رأسها، الزوجة الكبيرة في السن التي تقرأ رواية بانتظار أن يغلبها النعاس مجدداً، وفي تلك اللحظة يجمع الليل أطرافه بمناورة سرية ولا يعود الظلام غازاً بل نفطاً يسير نحو الغرب. أعرف تلك اللحظة التي يفك فيها الليل نفسه من براثن الأرض وينزلق عليها. يشتهي الرجل الذي بقي واقفاً على رجليه طويلاً أن يأتي النهار ولكنه يريد في نفس الوقت أن يتبع الليل ويمضي إلى الغرب الذي يحيطه الظلام.

في هذه اللحظة أنسل من نوم ليلى التي رقدت على ذراعي. في البدء تقبض على المخدة بدلاً من يدي ومن ثم تستيقظ. حان الوقت لي. أقول لها. بوسعك الاستمرار في النوم. ولكنها تريد الخروج برفقتي وترجو أن نحتسي القهوة معاً. في المطبخ شبه المعتم، الذي يستمد ضوءه من الممر، ندفأ نفسينا بكوبين من القهوة. تدعك أنفها ونعاسها على وجهي الحليق. ثم تستنشق وتبلع ريقها وترتجف في شعري

Twitter: @ketab_n

ويلوح لي أن الوداع سيكون مثل قيامنا بإطلاق رصاصة على جبهتنا.

ـ لا تفكر بذلك الآن. لا زلت قادرة على الوقوف على قدمي.

ـ أنت نعسانة ولكنك مع ذلك تسمعين ما يطن في رأسي.

ـ غن إذن كي لا أسمع شيئاً.

أدندن أغنية المهد على الغندول فتضربني بقبضتها على صدري.

ـ ليس هذه، سيغمى عليّ.

ثم تتثاءب طويلاً مثل عويل ذئب.

تستند إلي. نخرج. الريح تهب في الخارج. تغمغم: يعيشون كالأحصنة، هؤلاء الذين يتجولون خارجاً في هذا الوقت.

هكذا يعيش العمال المياومون في هذا العالم يا ليلى. ينهضون قبل شروق الشمس ويرجعون إلى بيوتهم بعد أن تغيب الشمس. يمضون من الظلام إلى الظلام.

تحاول ليلى أن تشهق. لا أعرف إن كانت تلتقط أنفاسها أم تتثاءب.

ثمة من يسير في الطريق. شخص أعرفه. أقترح عليه

Twitter: @ketab_n

إيصاله إلى حيث يريد بسيارة ليلى التي تتمدد على الكرسي الخلفي وتحاول أن تعدل وضعيتها كي تنام قليلاً. لا يقول الرجل شيئاً. يشعر بالضيق قليلاً. سيذهب إلى ورشة البناء. من **فوهة حقيبته الكتفية** تظهر فلينة رأس زجاجة نبيذ وأشم رائحة معكرونة ساخنة. تنهض زوجته قبله كي تطبخ له وتضع الأكل في علبة بلاستيك يأخذها معه إلى الورشة. إنه لحام وهو يصنع إطارات حديدية لتصفيح الأعمدة الإسمنتية. يجلس وقد طوى يديه في حضنه.

أنزله عند موقف الباصات. تأتي ليلى وتجلس في المقعد الأمامي. لقد صحت.

ـ سيأتي يوم ونلتقي فيه من جديد. لا أعرف متى بالتحديد ولكن هذا سيحدث في يوم من الأيام. قريباً بكل تأكيد.

لكي أخفي أفكاري أشرع في ترديد دندنة قديمة عن عيد الميلاد وعن عازفي المزامير. تضحك ليلى ثم تسكت فجأة. أمام الحديقة التي أعمل فيها تقف سيارة فيها رجل. لا أحتاج أن أسأل عما إذا كان هو. نقف في زاوية يمكننا رؤيته من دون أن يرانا. بصوت مبحوح أطلب من ليلى أن تعطيني عنوان هذا الرجل وأشعر بأعصابي تشتد وتتوتر ويسري الدفء في قدمي ويبرد وجهي.

ـ لست مرغماً أن تتحرى عن كل شيء من أجلي. تقول.

أصر على طلبي بفظاظة.

Twitter: @ketab_n

تذكر اسم شارع ورقماً. لا أحتاج لأن أدون. أنزل من السيارة دون أن ألمسها. أسمعها تشغل المحرك وتضع المحول في عكس الاتجاه. أصعد إلى الطريق وقبل أن أنحرف باتجاه الحديقة أسير بمحاذاة السيارة الواقفة، من الأمام، ونرى بعضنا بعضاً وأشعر بطعم الملوحة في فمي.

أحدنا سيلقى حتفه ولا يهمني من يكون. أجتاز الشارع وأدخل الحديقة.

أحتاج لأن أزور العنوان. الخطة هي أن أذهب إلى هناك في استراحة الغداء.

يقف الربيع أمام الباب. تشعر الأشجار بضغط من الجذور فتفتح المجال أمام البراعم كي تخرج إلى النور. شجرة الجوز وحدها مازالت تنتظر. أهوي على الأعشاب بالمنجل. ثم أتوقف. أهوي وأتوقف. الأزيز السريع للمنجل هي نفحة تنفس. أهوى استعمال المنجل. أتحكم بالضربة السريعة نصف الدائرية من اليمين إلى اليسار بدقة تجعل العشب متساوياً.

اليوم لا أشعر أني أعمل بل الأحرى أني أخبأ نفسي في العمل وأستسلم للزمن. العشب المقطوع تواً ينشر رائحة طازجة في الجو. أجمعه بالمدمة.

يقف سليم عند البوابة، يتشمس وهو يرتدي قميصاً جديداً.

Twitter: @ketab_n

ـ إنه الربيع يا رجل، يجب أن يرتدي المرء ملابس جديدة.

هو طويل القامة، قوي البنية. إنه إنسان شجرة. لديه نقود وهو يريد أن يدفع ثمن الكأس الذي وعدني به.

في منتصف النهار يتحتم علي أن أذهب إلى مكان ما. لن أذهب إلى الحانة.

سأرافقك، يقول لي.

ـ الأفضل ألا تفعل يا سليم.

ـ الأفضل أن أفعل يا رجل.

يقول ذلك بشكل حازم فألوذ بالصمت. يساعدني في جمع العشب. ثم نجلس معاً وننقض على السردين والخبز تحت شمس نيسان.

ـ إنه عشب رائع للبقر. كانت أبقاري ستلتهم هذا العشب. يقول. خسارة أن نرميه. أبقاري هزيلة ولكنها سليمة ومعافية. قريباً ستلد ويجب أن أكون هناك.

لا أخبره شيئاً عن المكان الذي سنمضي إليه وهو لا يطرح أي سؤال عن ذلك. نمشي مثل عاملين يقومان بنزهة في وقت الغداء. يمضغ بذرة حبة الزيتون من دون توقف. أمام المدخل ألمح السيارة التي كانت هناك في الصباح. نتوقف كي نرتب هندامنا. أتوجه إلى الممر الذي يؤدي إلى البوابة ثم

Twitter: @ketab_n

أتراجع. إنها بناية جديدة وليست ثمة أسماء على أجراس الأبواب.

هناك فقط بنايات في الشارع باستثناء حوض واحد للزهور. يتلفت سليم حواليه وأنفه في الأعلى، كما لو كان يتوقع مطراً. نحن مثل عاملين في مهمة، غير متأكدين من العنوان. ليس ثمة ناس في الخارج باستثناء رجلين مسنين خرجا في جولة مع كلبيهما. نلتف حول البناية. أريد أن أراها من كل الجهات. لا أعرف كيف أمضي قدماً ولكني أعرف أن أعصابي ستخبرني حين يحين الوقت المناسب. نلوذ بالصمت من جديد. يضع سليم كل ثقله على قدميه، لا يستعجل، يفرز قدميه في الأرض ولا يرفعهما إلا قليلاً.

إنه يغوص في أرضه الخاصة ويبحث عن قطيعه. مازال يمص ويمضغ بذرة حبة الزيتون.

في الحديقة أستأنف قص العشب. يقوم سليم بترتيب أحواض الخزامى. ثم يجلس القرفصاء على الأرض ثم يصنع باقات يضمها بالخيط.

ـ حديقتك تمنحني ما يمكنني بيعه.

يسحب سكيناً من جيبه. سكينه أقوى وأكثر خبرة من منجلي. يمدد باقات الخزامى على الأرض كي يجففها. دون أن يعمد إلى إثارة انتباهي أسمعه يردد شيئاً ناحيتي وعيناه مثبتتان على يديه.

Twitter: @ketab_n

ـ أنت لا تريد النقود، لا تريد النبيذ الذي أدين لك به، وهكذا فأنت تربطني، لا تحررني. تقول لا لرجل ولا تعطيه الفرصة كي يرد إليك الدين. يجب أن أفك الدين. يجب أن تكون الصداقة هي ما يربط الرجال، والمساواة.

أسمعه يلفظ بذرة حبة الزيتون. أواصل العمل. هو يتقن إيصال رأيه من دون أن يفعل ذلك بشكل مباشر.

في أقصى الحديقة يقاطعني صوته حين يشرف يوم العمل على الانتهاء. يودعني. أمد ذراعي، وليس يدي، فيمد ذراعيه ويضعهما على كتفي. تظهر كل أسنانه في ابتسامة عريضة ويأخذني في حضنه.

لقد صمم أن يرحل. هذه لحظة الوداع. فجأة أحس بطعم مر في فمي وينتابني شعور بالذنب إزاء النبيذ الموعود الذي رفضت أن يعيده لي.

ـ لم يعد ثمة وقت للنبيذ يا رجل. سأحذف الحساب الأخير من الدين. ذات يوم ستدفع القائمة كلها دفعة واحدة.

تلوح على وجهه ابتسامة عريقة، بعيدة، تحمل أنفاس إفريقيا. حفنة من حبات الطلع حملتها الريح إلى هنا، قفير نحل متجول، شعلة بيضاء تنطفئ في الفم. ويمضي صوب البوابة متأبطاً باقة الخزامى. وعندئذ أغمض عيني خلف يدي، من أجل شيء خسرته في هذا اليوم، ولاسيما ما قمت

Twitter: @ketab_n

به في الأخير. أجثو على ركبتي في الحديقة، أفتش عن بذرة حبة الزيتون. أعثر عليها وأطمرها في زاوية تحت تربة سوداء.

كان علي أن أذهب إلى البيت وأنام وأنا اضع يدي في جيبي مثلما كنت أفعل قبل زمن ليلى. من قبل أن أتعرف إليها كنت أعرف أن القتل مؤلم ولهذا كان في وسعي أن أوفر عليها هذا العناء. سأذهب إلى هناك. يجب علي أن أسرع. لا يتطلب الأمر أية تحضيرات. سأذهب إلى هناك هذا المساء. سأفعل هذا قفزاً، مثلما كنت أفعل في الأرجنتين. في هذه الأثناء تتصلب الأعصاب. أعتقد أن في وسعي التعامل معه. أن أطرحه أرضاً. إذا كان يحمل سلاحاً يمكنني أن أنتزعه منه وأستعمله. وإن لم يكن سأتدبر الأمر بطريقة ما. أحس بقوة عارمة تصعد من الحجاب الحاجز، وفي رأسي هدوء كبير أكثر رسوخاً من أي وقت مضى. لن تغادر الأرجنتين جسدي. الجراح التي خلفتها الحرب والقتل لم تندمل بعد تماماً. وهاهي امرأة تظهر فجأة وتعرفني من أول نظرة، ولا ينتابها الهلع بل تختارني وتكلفني بالمهمة القذرة إياها. وهذه المرة لا ألوذ بالفرار. هذه المرة أبقى في مكاني راسخ العزم.

آخذ معي زوجاً من القفازات. مازال ثمة ضوء حين أمضي صوب البوابة لهذا أدخل الحانة كي أتبادل بعض الكلمات مع النادل. إنه مشغول بملأ الأباريق فأمد له يد المساعدة. ثم

Twitter: @ketab_n

يزيح كرسيين من إحدى الطاولات ويأتي بقطعة من جبن الماعز وخبز أسود وزجاجة من النبيذ الأحمر. يخبرني عن بيت على الشاطئ يريد الانتقال إليه حين يعتزل العمل. أنا أيضاً، أقول له، أفكر ببيت على الشاطئ، بنوافذ تطل على الشرق وعريشة في الجهة الجنوبية. الغرب والشمال جهتان أدير لهما ظهري. بالنسبة لي، يقول، الغرب هو مثل ظهر أبي الذي سافر إلى أمريكا. لازلت أتخيله على ظهر السفينة يمضي ويختفي في الغرب مرة وإلى الأبد.

لم يعد أحد منا يعيش على هذا النحو. الآن بات الآخرون يفعلون ذلك. أولئك الذين يأتون إلى عندنا ويقصدون كل الجهات باستثناء البحر. غريب، أليس كذلك؟ حتى أولئك الذين يملكون جوازات سفر يتجنبون السفر في البحر. لذلك هناك دوماً مكان وطعام عندي لهذا الصنف من الناس.

أتناول القليل من الطعام وأرتشف جرعتين من النبيذ. المساء ينتظر وعلي أن أخرج. يسألني إن كنت سأذهب إلى البيت. أقول له لا. لا أعرف أي رنين صدر عن الجواب. يمد النادل يده اليمنى لمصافحتي ويمرر اليد الأخرى على ذراعي التي تصلبت وأصابها التوتر.

الطريق طويل. والمشي على الأقدام يبعث الفرح في نفسي. إنه يحرك الدم والعظام. أسيطر على أنفاسي ودقات قلبي. أهدّئ من روعي وأتصلب. أشعر بقوة مركزة في ذراعي

Twitter: @ketab_n

تكفي لكي أحدث فجوة في برميل. أتجنب الاصطدام بالناس في الشارع لأنني أخشى أن يؤدي مجرد الاصطدام إلى إلحاق الأذى بهم. تتجه امرأة صوبي فأسرع للقفز إلى الرصيف قبل أن تفعل هي ذلك. ينبغي على القاتل أن يبقى طليقاً. أواصل السير ويتزود الجسم بالمزيد من الطاقة. أقوم بخطوات أوسع فيما تتقلص ذراعي إلى أقل ما يمكن من الحركة. إنهما تنتظران الضرب وحسب. تمتد أصابعي وتتباعد كي لا تحتك ببعضها البعض. أشعر بالهواء على أطراف الأصابع. من نهايات الأصابع وذرى الشعر يأتيني إحساس بالسيطرة الدائمة على الخط المرسوم بيني وبين العالم الخارجي. عيناي أيضاً تريان ما بداخلي. إنهما تظهران صورة قلبي الذي يواصل النبض بضربات قوية وثابتة وتنتقلان إلى العمود الفقري، ذلك الثعبان الجامد الذي يختبأ في الهيكل العظمي ويجعلنا ننتصب مثل حيوان زاحف يتأهب للانقضاض. وأنا أعرف أنني إنسان، لأنني الأخطر بين كل الحيوانات. فأنا لست أبحث عن فريسة بل أسعى للقتل وحسب. حين أصل إلى هذا الحد وينتابني هذا الإحساس فأنا إذن جاهز. يتهاوى الكثير من الجنود لأنهم لا يبلغون هذه النقطة. أنا ولدت تحت برج الثور، وهذا يقتضي وضع حلقة في أنفي بأسرع ما يمكن.

Twitter: @ketab_n

أصل إلى زاوية الشارع وأرى ثمة جلبة. رهط من الناس تحت مصباح الشارع. حادث ربما. أقول لنفسي وأواصل السير ثم أكتشف أن الأمر حدث هناك أمام رقم الباب الذي كنت تأكدت منه في النهار. ألمح رجال الشرطة. وقد جرى وضع حاجز في الشارع فأمضي صوبه. يقول لي شرطي بزيه الرسمي أن علي ألا أقترب من تلك المنطقة فأسأله عما حدث فيحثني بيده على أن أسرع وأخرج. تجمع الناس بالضبط أمام الباب الذي كنت ذاهباً إليه. لقد استعدت لذلك منذ وقت وفي مقدوري أن أركض وأتخطى الحشد وأصل إلى الباب. في مقدوري أن أهجم على ذلك الرجل، فذراعي متأهبة مثل رمح جاهز للضرب وفي وسعي أن أرسم خدشاً عميقاً في الأرض إن أطلقته. لا أستطيع أن أعيد يدي إلى جيبي بكل بساطة.

أستدير على عقبي وأفكر بأن في استطاعتي تخطي الحاجز في نقطة ما والقيام بخطوتين وأشعر بلفحة حادة تخرج من أنفي وبشيء ساخن يضرب وجهي ويتجه إلى الأسفل وأدرك أنه دم وأرى أن الدم يتدفق من منخري ويسقط على الأرض ويناولني رجل منديلاً وينصحني أن أرجع رأسي إلى الوراء وأمتثل له وأغلق عيني وأسمع صوت امرأة تتحدث عن زنجي وأفكر بسليم بقميصه الجديد وأسند نفسي إلى سياج حجري وأجلس على الأرض وربما يغلبني النوم.

Twitter: @ketab_n

أفتح عيني لأنني أسمع صاحب المنديل يتكلم معي ولا أعرف لماذا أنا جالس على الرصيف وظهري إلى سياج وحوالي بعض الناس. وأرى أن أصابعي ملطخة بالدم وأرى أن الدم يغطي وجهي كله وأستعيد قواي.

أنهض وأشكر ويبتعد الرهط ويأخذني صاحب المنديل في أحضانه لرفع معنوياتي. ألاحظ أن يدي خالية وثقيلة وأتذكر كل شيء.

يدعوني الرجل لأن أرافقه كي أغتسل. إنه طبيب وعيادته في الجوار. سيقيس ضغط دمي. يطرح عدة أسئلة. المهنة. العنوان. أجيب.

يعتذر لأنه يتكلم ويتدخل في أشياء لا تخصه. ولكنه يفعل ذلك فقط ليعرف ردود الفعل عندي ومدى سلامة أعصابي.

أغتسل عنده. في المرآة أنا مهرج بشارب مرسوم يغطي وجهي كله. أغتسل وأدعك وجهي وأعجز عن فهم سبب للفرح الذي يغمرني. لا زال في مقدوري القيام بما خططت له. والوقت الذي كنت حددته ينسحب باتجاه ليلى. والآن بات وجهي معروفاً في هذا الشارع ومن الصعب التملص. ولكن فقدان الدم يجعلني أتراخى.

أخرج منتعشاً من الحمام. الرجل وجهه جميل، أسمر، ونحيل كوجوه الفلاحين في جنوب إيطاليا. وخده رقيق الجلد أشبه برغيف مرقوق. يغطي رأسه شعر أبيض كثيف. وبينما

Twitter: @ketab_n

هو يمسك بذراعي يخبرني أنه قريباً سوف يعود إلى مسقط رأسه، وهو مكان يذكرني بالنبيذ. يلوح لي أن كل الذين ألتقيهم يصارعون من أجل الصعود إلى الشمال.

إنه يعيد ترتيب بيته وممتلكاته هناك. سوف يقيم في أرضه. وسيقطع علاقته بالمدينة حيث الناس يتعرضون لإصابات بشعة وطلقات الرصاص والمخدرات والأعصاب. سيعالج القلوب والكبار في السن.

ضغط دمي طبيعي. ينصحني بتناول كأس من النبيذ. ثم يشرع في التفكير بالرجل الذي كان يعالجه قبل أن يأتي إلي. وقال أنه قتل مثل كلب، ذبح.

امرأة رأت زنجياً يأخذ بخناق رجل يترجل من السيارة ويذبحه. ورأته من ثم يواصل طريقه وكأن شيئاً لم يكن دون أن يتلطخ قميصه بقطرة دم واحدة.

خرج الطبيب مسرعاً حين سمع صوت صرخات من الشارع، ووجد المرأة وهي ترتجف من الهلع، وعلى الأرض بركة من الدم وعلى بعد خطوات يرقد رجل على وجهه إلى الأسفل. كإجراء أولي فحص نبضه ثم ذهب وأحضر منشفة ووضعها على وجهه.

ـ عندما يموت إنسان فإن جلده يفقد الحرارة بالسرعة التي يفقدها الرمل حين يحل المساء في الصيف. يرغب المرء في تسخينه. يقول.

Twitter: @ketab_n

ـ لا بد أنه بالكاد شعر به. الجرح عميق وقاطع. إنه سكين حاد للغاية. بالكاد أحس برجفة البرد.

ثم أتيت. وكأن الأمر لم يكن يكفي، أضيف إسهامي للدم المراق في الشارع.

يصغي إلى نبض صدري بجهاز بارد.

في الوقت الذي يقيس فيه ضربات قلبي أتذكر فجأة رماد سليم وتحيته الوداعية، وما أفهمه يصعب علي كبته. الدم الذي أفقده يجعلني فارغاً.

يقول الرجل أن عضلة قلبي قاسية مثل قوقعة جوز الهند. أخيراً ينتهي من الإصغاء. نتبادل الوداع بشكل ودي. أشكره. يقول أنه سيمر علي ليستشيرني حول السماد وأدوات الزراعة.

أدير ظهري للمكان الغاطس في بركة الدم. أذهب إلى المحطة. أستقل القطار الذاهب إلى حيث بيتي. أعود إلى البيت. هذه الكلمات تستفزني. أعود إلى البيت من الجنوب. من موعد مع الأرجنتين. أضع خلف ظهري مائة من درجات العرض ذات مساء وأتحرر من ليلى وأكف عن التفكير بالصديق الذي دفع دينه بصدر حاضن وعنق مقطوع. أنسى اسمه، مجرد أن يكون اسمه حاضراً في ذهني هو خيانة له.

أنسى كل الأسماء، أردد أغنيات، وأكبت الأفكار. أتجه صوب الحقول. صوب الجهة التي تؤدي إلى إفريقيا. أجلس

Twitter: @ketab_n

وعيناي مغلقتين في هذا الاتجاه، مثلما يفعل العميان حينما يتمكنون من سماع ابتسامة ويستديرون نحوها.

لا بد أن أعود إلى البيت، وأجلس في المطبخ، وأعوض خسارة الدم بالنبيذ.

أجلس بالقرب من النافذة في القطار. ليس ثمة عمال في هذا الوقت من النهار، بل ثمة طلاب وبائعات المحلات. يعدن إلى المنزل متأخرات عنا نحن الرجال. أراقبهن. يضحكن بشكل جماعي، يرغبن في الحفاظ على مزاجهن عالياً في ما تبقى من اليوم. يتصارعن بالضحك، وينجرفن فيه، يضحكن مثلما أمشي، وأشرب.

ألمس الكتاب الذي في جيبي. إنه جزء مهم من عدة البيت. أتركه في جيبي. إنه الدواء الناجع للأيام القادمة.

ألمس المكان الذي اخترقتني فيه طلقة الرصاص، ولم تأخذني معها.

تستعد الفتيات للنزول وأتبعهن بوصفي الراكب الأخير.

على رصيف المحطة أرفع أنفي نحو السماء وأشم رائحة دمي الذي جف.

في بعض الأوقات تكون السماء بيضة، ويشعر بها الإنسان من داخلها.

Twitter: @ketab_n

لفحة ريح من الشمال الغربي تجلب الصدأ والملح. يتساقط الحديد هنا. ونبات الريحان يكتسب اللون الأخضر الداكن.

من المصطبة أشم رائحة شتلات الريحان وأحس بها ترحب بي. أحضر لنفسي قليلاً من الأكل. أطفأ الضوء وأجلس.

أمضغ في الظلام، أبلع، أصغي.

إنه مساء صاف، لا قمر فيه. أصبغ أصابعي برائحة البقدونس والثوم. يسيل من الخبز قليل من الزيت في راحة يدي وأحس بالسعادة لأن يغمرني الزيت وليس الدم.

أمسد جبهتي براحة يدي كي أمسح عنها هذا اليوم.

لست بريئاً. لا أشعر براحة البراءة. بل بالراحة الجسدية الصافية، بعد نزيف الأنف.

لقد حل محلي كقاتل رجل آخر، دون أن يمنحني ذلك البراءة. لقد قام بالفعل فقط بدلاً مني. على ذراعه ترقد بصمة يد أطبقت على رقبة. وذراعه تتهيأ لكي تكرر الحركة في الفراغ إلى أن يبقى هناك شيء واحد وحسب. مشهد الحادثة.

الشخص الرياضي يقوم بتدريباته من خلال الحركات المتكررة. لكي يستعد بشكل مسبق. أما القاتل فيكرر حركاته القاتلة بأعصابه إلى أن يعجز عن الاستمرار. إنه تدريب معكوس يهدف إلى الخلاص.

Twitter: @ketab_n

أعرف أنه يحمل معه السكين أينما ذهب لكي يقطع الخبز ويهيئ باقات الزهور ويشطر الفواكه.

الشخص الذي يحب شيئاً ما ويعرف قيمته من خلال استعماله له لا يستعمله للمرة الأخير في عمل شرير.

في عتمة المطبخ يلقى حصاني الثاني حتفه.

الناس الذين يخططون طوال سنة كاملة يسافرون في يوم واحد. إنها نهاية «أحضني» وبذور حبات الزيتون.

ألبث مكاني. وهذا المساء لن أشتاق إليهم.

أغفو وأنام بجانب الطاولة ولا أصحو إلا وقت الفجر.

الآن علي أن أعتاد على الأيام بفم مطبق.

أتناول الكتاب الذي لم يزل موضوعاً هناك. أستأنف إيقاع، وأنفاس، رجل آخر يقوم بالسرد. وكونني صرت رجلاً آخر فلأن الكتب تستطيع أن تغير البشر أكثر من السنين والأسفار.

بعد الكثير من الصفحات يكتشف المرء شيئاً جديداً. حركة جديدة غير تلك التي دأب على القيام بها وأعتقد أنها شيء لا يمكن تجنبه.

أحرر نفسي من نفسي حين أتعلم أن أعيش الحياة بطريقة جديدة.

Twitter: @ketab_n

أبلل وجهي وأحلق ذقني في العتمة وتجد موسى الحلاقة طريقاً جديداً على الجلد.

أحشر الكتاب في الجيب الداخلي لسترتي، تماماً على مستوى القلب.

هناك كان يرقد سكين،

الآن شيء آخر.

* * *

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

غريب هو عالم الكاتب الإيطالي إرّي دو لوكا. إذ استطاع أن يعرف، عبر عدد من الروايات، كيف ينسج عالماً متماسكاً، يرتكز في جزء منه على سيرته الذاتية المليئة بالأحداث والنضال والمنفى. وما الغرابة هنا إلا هذا السحر الذي يقودنا إليه من كتاب إلى كتاب، لا ليخبرنا فقط عن تاريخه الشخصي، بل لننظر معه إلى فترة من التاريخ الإيطالي الحديث، لكن من دون أن يسقط ولا في أي لحظة في متاهة اللعبة التاريخية المبسطة التي تروي مجرى أحداث فقط.

ISBN 9933350765
9 789933 350765